من أسرار بلاغة ما قدم وأخر في متشابه النظم القرآني

الدكتور

محمد على أبو زيد

الأستاذ المساعد بقسم البلاغة والنقد بالكلية

من أسرار بلاغة ما قدم وأخر فى متشابه النظم القرآنى

الدكتور

محمد على أبو زيد

الأستاذ المساعد بقسم البلاغة والنقد بالكلية

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل إلى الدراسة

الحمد لله الذى شرف اللسان العربى بذلك الكتاب المحكم آياته من لدن حكيم خبير، والصلاة والسلام على خير من وعى مراد ربه، فكان خير وسيط ناقل مراد الخالق لهداية خلقه، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وتابعيه إلى يوم الدين ٠

وبعد

فذلك الكتاب لا ريب فى أنه محفوظ حافظ ، محفوظ بمقتضى وعده تعالى الكريم العزيز ، الكريم المنجز لما وعد ، العزيز الغالب على أمره ، وأما أنه حافظ فلأنه قد صير العربية بإيثارها من قبله تعالى من بين لغات العالمين مشمولة بالحفظ الإلهى ٠

وقد كان أهل العلم من أسلاف هذه الأمة يعقلون هذه الحقيقة ويعملون على مقتضياتها، ومن هنا نراهم وقد قطعوا حياتهم بالكلية عملا على مقتضيات هذا الأمر كما يشهد لهم بذلك تراثهم المتوارث ٠

والناظر أو الدارس لهذا التراث العظيم يدرك فى يسر، ما كان يمتاز به هؤلاء من وضوح الغايات ونبل المقاصد عندهم، ثم إنهم قد هدوا إلى فهم الوسائط الموصلة ، لذلك رأيناهم يقدمون على اللغة، ويقبلون عليها درسا وفهما وبحثا فى شتى جوانبها وأنحائها من منطلق واحد وباعث حثيث، وهو خدمة القرآن الكريم حيث كان هو الغاية والمصدر معا٠

والبلاغة العربية شأنها فى ذلك شأن سائر علوم اللغة قد نشأت ونمت وأثمرت فى ظلال القرآن الكريم .

وما دام القرآن الكريم هو الغاية، فقد اجتهد العلماء السابقون فى تجلية حقائقه والتصدى لمثيرى الشغب والمتحرشين بأساليبه والمتربصين بطرق أدائه ودروب عباراته فأنتج ذلك بحوثا قيمة فى مجال الإعجاز والبلاغة .

وما دام القرآن الكريم هو المصدر أيضا، فليكن الاقتراب من أساليبه واستجلاء أسراره ودقائق نظمه وخصائص تراكيبه ودلالات ألفاظه المحور الذى يديرون عليه نظرهم وبحثهم، فصار لهم ما كانوا يطمحون حيث أفاء الله عليهم بفيض سخى من عطاء قرآنه الكريم، وهكذا حال ذلك الكتاب، عطاؤه دائم ومتجدد تحقيقا لأمر إعجازه منذ البعثة وإلى يوم البعث ، فكما شاء الله تعالى لحكمة وغاية أن ينزل قرآنه منجما، وإن كان فى وقت معين معلوم ومحدد وهو زمان مبعثه ﷺ ، فقد قضت مشيئته تعالى لحكمة وغاية عظمى أيضا، ألا يبذل فيض عطائه القرآنى دفعة واحدة لجيل وعصر بعينه ويحرم من بعد ذلك العصور والأجيال الأخرى، بل يبقى فيضه سخيا ممتدا ومتجددا على مدى الزمان والأجيال؛ ليظل من بعد ذلك أمر الإعجاز دائما ومتجددا وموصولا .

ومن المعلوم الثابت أن لموقع الكلمة أصلا مرعيا ترتيبا وصياغة، فلكل كلمة بحكم موقعها دلالة، حتى إذا ما عدل بالكلمة عن موقعها الذى كان لها بمقتضى أصل الصياغة والترتيب. فلا شك أن يطرأ ويتجدد لها معنا ومغزى أو خصوصية فى الدلالة بما لم يكن لها من قبل .

وهذا مفهوم ومقرر، وقد سبق أن نبه عليه أئمة هذا العلم وفى طليعتهم الشيخ عبدالقاهر، حيث قدم لأحاديثه عن التقديم

والتأخير بإيضاح أمر الفروق الدقيقة بين الكلمات تقديما وتأخيرا، بحيث يعد كلامه الأصل الذى يبنى عليه.

والتقديم والتأخير – لا ريب – من موضوعات البلاغة المهمة، وتحته شعب ودروب، ومن وراءه خصائص وأسرار، ولذا رأينا اهتمام وعناية أهل هذا العلم والباحثين فى شئونه قديما وحديثا تاريخا ودراسة.

ولكن يبقى هناك فيما أقدر بعض الجوانب أو كثير منها لا تزال فى حاجة إلى مزيد دراسة وبحث، ومن بين هذه الجوانب ما يلحظ من أن القرآن الكريم يورد بعض الألفاظ أو التراكيب على نحو من التقديم فى موضع أو مواضع على حين تؤخر هذه الألفاظ أو التراكيب فى موضع أو مواضع أخرى.

ولا ريب فى أن من وراء كل من التقديم والتأخير أغراضا وأسرارا، يكشف عن بعضها التأمل الدقيق والتنبه الواعى للسياقات وأغراض الكلام ومقاماته.

وهذا الموضوع يعد بابا مهما وجليلا من أبواب البلاغة القرآنية، حيث تهتدى بدراسته إلى شئ من أسرار الكتاب العزيز وأغراضه واختلاف سياقاته، هذا فى جانب البلاغة القرآنية، ثم إن دراسة أمثال هذه الموضوعات ذات مغزى خاص فيما يتصل بجانب الرد على أولئك الطاعنين على القرآن الكريم، والمترصدين لأساليبه، وطرق أدائه للمعانى وعرف استعماله.

وفى تراث أهل العلم السابقين نماذج متفرقة وإشارات حول أسرار وأغراض على نحو ما نجد عند أمثال الزركشى وابن الأثير وابن القيم، وكذا أصحاب دراسة المتشابه وبعض المفسرين وهذه الدراسة تسعى وتخلص المحاولة فى البناء على ما سبق إيضاحا لمبهم وتفصيلا لمجمل وإيجازا فيما تعتقد فيه إطالة أو تحذف ما ترى فى الكلام غناء عنه كما تضيف وتذكر ما ترى وترجوا معه إفادة.

ولكن يظل المقصد الأصيل من وراء هذه الدراسة غرضين جليلين ينتهيان إلى غاية واحدة خدمة الكتاب الكريم، فأمثال هذه الدراسات تجيب عن تلك الشبه التى أثيرت ولا تزال تثار من قبل أولئك الذين حرموا فقه الأداء القرآنى حول التعارض والاختلاف والاضطراب المتوهم ٠

كما أن أمثال هذه الدراسات تعنى كثيرا بالنظر فى تنوع السياقات، وتفاوت المقامات، وتباين الأغراض، وبذا يظهر ويدرك أو يبدو ويلمح ما وراء كل تعبير مما قدم وآخر، ويتأتى ذلك بالاقتراب الشديد من مواقع الكلمات ومراقبة المعانى وخصوص الدلالات الطارئة باختلاف المواقع والسياقات ٠

ولم تركن الدراسة إلى ما يستند إليه بعض أهل العلم أحيانا ورد الأمر فيما قدم وأخر إلى ما يعبر عنه بالتفنن أو الاتساع ونحو ذلك مما سبق ، ونبه ، بل وشدد أمثال عبدالقاهر إلى عدم الركون إليه أو الاعتداد به ، وإلا صرفنا ذلك عن تلمس الأسرار واللطائف والدقائق٠

وبما أن هذه الدراسة تمضى على الطريقة التى يقتضيها الدرس البلاغى، فقد سلكت فى فصلين أولهما يذكر فى مبحثه الأول ما قدم وآخر من طرفى الإسناد، وفى مبحثه الآخر ما قدم وآخر من التراكيب والجمل، وأما الفصل الثانى بمباحثه الثلاثة فقد جاء معه ما قدم وآخر من القيود والمتعلقات ٠

وأود أن أشير هنا إلى أمر مهم وأرى التنبيه عليه لازما، ذلك أن الدراسة أحيانا ما كانت تكتفى بالإشارة إلى بعض النماذج دون تفصيل أو استيعاب، وذلك مرده إلى أحد أمرين فقد يكون هذا الجانب أو النموذج قد سبقت دراسته بحيث يصبح الحديث المفصل نوع تكرار أو إطالة أو يكون باعث ذلك اتساع المجال على نحو لا تتسع معه هذه الدراسة على ما يشار إليه فى موضعه إن شاء الله تعالى٠

والله سبحانه وتعالى من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل ،،،

الفصل الأول
ما قدم وأخر من طرفى الإسناد والتراكيب

المبحث الأول : ما قدم وأخر من طرفى الإسناد

فمن ذلك قوله تعالى فى فاتحة الكتاب: ﴿الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وفى خاتمة الجاثية : ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ ﴾ [1] ويلحظ أن العرف القرآنى قد جرى على إيثار تقديم لفظ الحمد والابتداء به وتأخير لفظ الجلالة المتعلق به ، فيرد التعبير هكذا "الحمد لله" حيث جاء التعبير على هذا النحو فى ثلاثة وعشرين موضعا وجئ بلفظ (الحمد) مؤخرا فى موضع واحد قوله تعالى :﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ ﴾[2]، كما أنه ورد ذكر الحمد مؤخرا أيضا مع تقدم المتعلق المشتمل على الضمير العائد عليه سبحانه و(له الحمد) فى أربعة مواضع .

وتوجيه صاحب البرهان أن تقديم لفظ (الحمد) فى آية الفاتحة جرى على الأصل، والتأخير فى آية الجاثية لكونها فى موقع تقدير الجواب[3].

وكون التركيب مما يجرى على وفق أصل الترتيب لا ينفى حتما التماس ما يمكن أن يفاد من واقع خصوص الغرض وتفاوت المقامات.

فتقديم (الحمد) فى أم الكتاب لأن المقام له ، إذ هو ابتداء بذكر أولى النعم بالحمد وهى نعمة تنزيل القرآن الكريم ، وتلك منة دون ريب تعد من أعظم ما يحمد الله تعالى عليها لاسيما وقد اشتمل القرآن العظيم على كمال اللفظ والمعنى والغاية، فكان خطوره عند ابتداء سماعه وابتداء تلاوته مذكرا لما لمنزله تعالى من الصفات الجليلة، وذلك مذكر بلزوم حمده وأن لا يغفل عنه ، فكان المقام مقام

---

(١) سورة الفاتحة الآية ١ .
(٢) سورة الجاثية الآية ٣٦ .
(٣) البرهان فى علوم القرآن جـ٣ صـ٢٨٤ .

الحمد لا محالة، فلذلك قدم وأزيل عنه ما يؤذن بتأخره لمنافاته الاهتمام .

ومن هنا يفهم وجه إيثار التعبير على خصوص تلك الصياغة الخبرية وفضلها فى هذا السياق على تقدير من قدر الأمر بالقول وكأن الأصل : قولوا الحمد لله[1] ، فهذا يعنى إيكال أمر حمده تعالى إلى الخلق، وهم بحكم واقعهم أو كثير منهم ليسوا أهلا للمسير على مقتضى مثل هذا التكليف (وكثير حق عليه العذاب)[2] .

ثم إن ذلك الاهتمام يتأتى به اعتبار الاهتمام بتقديمه أيضا على ذكر الله تعالى اعتدادا بأهمية الحمد العارضة فى المقام ، وإن كان ذكر الله تعالى أهم فى نفسه لأن الأهمية العارضة تقدم على الأهمية الأصلية، لأنها أمر يقتضيه المقام والحال، والآخر يقتضيه الواقع، والبلاغة هى المطابقة لمقتضى الحال والمقام، ولأن ما كان الاهتمام به لعارض هو الأحوج إلى التنبيه عليه إذ قد يخفى أو يغفل عنه بخلاف الأمر المعروف المقرر .

ويظهر من ذلك أن مجئ التركيب هنا على أصل ترتيبه وتقديم لفظ (الحمد) لا ينفى قصد الاهتمام، مع أن شأن التقديم المفيد هو تقديم ما حقه التأخير .

فمع التسليم بذلك فإن تقديمه هو قصد المتكلم للإتيان به مقدما مع إمكان الإتيان به مؤخرا، فحيث جرى عرف الاستعمال العربى على ذكر أصل المراد بتعبيرين فى حمد الله تعالى أحدهما :﴿ الْحَمْدُ للَّهِ ﴾ كما فى الفاتحة والآخر ﴿ لِلَّهِ الْحَمْدُ ﴾ كما فى سورة الجاثية[3].

(١) التفسير الكبير جـ١ صـ٢٢٥ .
(٢) سورة الحج الآية ١٨ .
(٣) تفسير التحرير والتنوير جـ١ صـ١٥٨ .

فهم من ذلك أن من وراء كل تعبير بلاغته ومغزاه على حسب خصوص موقعه.

وأما تأخير (الحمد) وتقديم لفظ الجلالة فى موقع الجاثية (فلله الحمد) فلأن الكلام هنا جار على تقدير الجواب، فكأنه قيل عند وقوع الأمر: لمن الحمد؟ ومن أهله؟ فجاء الجواب على ذلك نظيره : (لمن الملك اليوم) ثم قال: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[1][2] .

ونظير هذا فى تأخير الحمد وتقديم الجار والمجرور قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾[3] والغرض من وراء هذا الدلالة على معنى القصر والاختصاص أى أن الحمد والثناء الذى يعم أرجاء الكون ما ومن فيه إنما هو له سبحانه على جهة التفرد إذ لا يشاركه فى مثل هذا أحد غيره سبحانه.

ومما يجرى على هذا الغرض مع اختلاف السياق والدلالة قوله تعالى : ﴿وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير ﴾[4] فالغرض من هذا هنا أيضا قصر وتخصيص تمام الحمد به سبحانه على جهة التفرد، لكن فى حال الآخرة إذ لا أحد هناك غيره سبحانه أهل لأن ينازعه فيه شأن ما كان عليه حقيقة الأمر فى الدنيا، وإن كان فيها ما يخالف ذلك حين يمدح غيره رغبة أو رهبة، رياء أو مدارة، وأما حال الحمد فى الآخرة فخالص له تعالى حقيقة ومعنى وواقعا.

ونظير هذا أيضا مع اختلاف فى النسق والسياق قوله تعالى : ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [5] حيث أفادت تلك المطابقة بين الأولى والآخرة خلوص أمر الحمد لله واختصاصه

(١) سورة غافر الآية ١٦ .
(٢) البرهان فى علوم القرآن جـ٣ صـ٢٨٤ .
(٣) سورة الروم الآية ١٨ .
(٤) سورة سبأ الآية ١ .
(٥) سورة القصص الآية ٧٠ .

به على وجه أعم وأشمل فكما كان سبحانه متفردا بالحمد وحده فى الدنيا المعبر عنها بلفظ (الأولى) فى الآية السابقة فهو المتفرد بالحمد فى الدار الآخرة كذلك .

وإثبات الحمد وتعليقه بما يفيد العموم المستوعب لكلا الدارين يتسق وسياق هذا التركيب فصدر الآية الكريمة يقتضى هذا ويناسبه (وهو الله لا إله إلا هو) ، حيث دل كل من التركيبين على معنى القصر والتخصيص أيضا لمعنى الألوهية وانتفائها عن كل ما عداه ، إذن فهو الحقيق باختصاصه بأمر الحمد كله فى كلا الدارين .

وأما قوله تعالى : ﴿له الملك وله الحمد ﴾ فقد أفاد هذا التركيب الدلالة على ثبوت أمر الحمد بتمامه له تعالى فى كل وقت ومكان، حتى وإن لم يأت مقيدا فى ظاهر التعبير على نحو ما سبق، وذلك مفهوم من دلالة اللفظ والتركيب ونسقه، حيث إن هذا التركيب وارد إثر ذكر ما يدل صريحا على استحقاقه تعالى لتمام معنى التنزيه وتجدده ، بحكم الصيغة المعبر بها وإتباع ذلك بما يفيد خلوص أمر الملك كله له ، إذن فهو تعالى المحمود الثابت له وحده أمر الحمد على جهة التفرد، يقول تعالى فى صدر هذا النظم : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) .

الأرض والسماوات :

ومما يرد على هذا أيضا ما جاء مع لفظى الأرض والسماوات حيث ورد تقديم كل منهما وتأخيره على الآخر ومما يدخل فيما نحن بصدده هنا نظير قوله تعالى: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾(٢) فلأن الآية فى سياق الوعد والوعيد

(١) سورة التغابن الآية (١) .
(٢) سورة الزمر الآية ٦٧ .

وإنما هو لأهل الأرض، وكذا قوله : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ﴾[1] وقدم الأرض على السموات لأن المخاطب بذلك هو الإنسان الذى يعيش على هذه الأرض ولان تبديلها اعجب وأعظم دلالة على المعنى والغرض فى هذا السياق لقربها منا[2] وأما قوله تعالى:﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ... ﴾[3] فتقديم ذكر الأرض لذا كان تقديمها أتم وأنسب وندائها على نداء السماء فى هذا السياق لما كان الغرض إنهاء أمر الطوفان الذى عم انحاء الأرض من بعد ما تحقق مراد الله تعالى وإهلاك من شاء إهلاكه وانجاء من شاء انجائه فلتؤمر الأرض إذا بالمبادرة ببلع ما عليها من مائها والإسراع فى امتصاصه وإخفائه بعد ما كان من شأنها حينا فجرت عيونا إنفاذا لمراد الله تعالى بإهلاك الطغاة ثم تنادى السماء من بعد وتؤمر بأن تكف عن إرسال مائها أيضا بعدما فتحت بيدى القدرة الإلهية أبوابها بالماء المنهمر ليجتمع الماء على أمر قد أبرم .

ولما كانت الأرض محل الطوفان كان البدء بها فى سياق بلع الماء أنسب من البدء بالسماء إذ انقطاع ماء السماء لا يعنى حتما توقف الطوفان ما لم يكن من الأرض تشرب وامتصاص بالبلع لما يكون منها من ماء متفجر ولما يرد إليها من ماء السماء المنهمر .

ولعل إيثار تقديم السماء حين كان المراد والسياق لأحداث أمر الطوفان فى قوله تعالى : ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُنْهَمِرٍ ﴾ [4] وتأخير ما كان من شأن الأرض فى ذلك:﴿وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا ﴾[5]

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٤٨ .
(٢) ينظر بتصرف من جمال النظم القرآنى فى سورة إبراهيم د. صلاح الدين محمد صـ٢٧٤
(٣) سورة هود الآية ٤٤ .
(٤) سورة القمر ١١ .
(٥) سورة القمر ١٢ .

لكون البدء بأمر السماء أنسب بحال الدعاء الصادر من نوح عليه السلام قبلا فى قوله تعالى : ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ (١) .

ومن هنا يفهم وجه إيثار التعبير بفاء العطف مع قوله تعالى (ففتحنا) فكأن ذلك إيذان بتعجيل الإجابة.

وسيرد لذلك مزيد تفصيل، وإيضاح فيما قدم وأخر فى القيود حيث يكون الحديث لسياقات ورود السماوات والأرض فى النظم الكريم فقد ورد الجمع بينهما على أنماط متعددة وخصائص تركيبية ذات دلالات تغرى بالوقوف على نماذج منها .

الشفاعة والعدل :

ومن ذلك تقديم الشفاعة على العدل وتأخيرها عنها فى قوله تعالى : ﴿وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ (٢) قدم الشفاعة فى هذه الآية وأخر العدل، وقدم العدل فى الآية الأخرى من هذه السورة وأخر الشفاعة: ﴿ وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ (٣) .

وتوجيه كثير من علماء المتشابه على أن ما فى الآيتين من تقديم وتأخير مرده إلى اتباع سبيل حكاية المعنى ولا يلزم من ذلك لزوم ترتيب معين(٤).

ويورد صاحب التحرير لذلك توجيها مبناه على التفنن فى التعبير وتلوين الأسلوب فيذكر " وقد أعيدت هذه الآية بالألفاظ التى

(١) سورة القمر الآية ١٠ .
(٢) سورة البقرة الآية ٤٨ .
(٣) سورة البقرة الآية ١٢٣ .
(٤) ينظر درة التنزيل صـ١١ وأسرار التكرار صـ١١٠ .

ذكرت بها هنالك للتنبيه على نكتة التكرير للتذكير ولم يخالف بين الآيتين إلا فى الترتيب بين العدل والشفاعة فهنالك قدم ﴿ وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾وأخر﴿ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾وهنا قدم ﴿وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ وأخر لفظ (الشفاعة) مسندا إليه تنفعها وهو تفنن، والتفنن فى الكلام تنتفى به سآمة الإعادة مع حصول المقصود من التكرير، وقد حصل مع التفنن نكته لطيفة إذ جاءت الشفاعة فى الآية السابقة مسندا إليها المقبولية فقدمت على العدل،بسبب نفى قبولها،ونفى قبول الشفاعة لا يقتضى نفى أخذ الفداء، فعطف نفى أخذ الفداء للاحتراس، وأما فى هذه الآية فقدم الفداء لأنه أسند إليه المقبولية، ونفى قبول الفداء لا يقتضى نفى نفع الشفاعة، فعطف نفى نفع الشفاعة على نفى قبول الفداء للاحتراس أيضا. والحاصل أن الذى نفى عنه أن يكون مقبولا قد جعل فى الآيتين أولا وذكر الآخر بعده . وأما نفى القبول مرة عن الشفاعة ومرة عن العدل فلأن أحوال الأقوام فى طلب الجناة تختلف فمرة يقدمون الفداء فإذا لم يقبل قدموا الشفعاء، فإذا لم تقبل شفاعتهم عرضوا الفداء وقوله : ﴿وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ ﴾ مراد منه أنه لا عدل فيقبل ولا شفاعة شفيع يجدونه فتقبل شفاعته، لأن دفع الفداء متعذر وتوسط الشفيع لمثلهم ممنوع، إذ لا يشفع الشفيع إلا لمن أذن الله له ، ولذلك قيل إن هذا جار على باب :

على لاحب لا تهتدى بمناره ∴ إذا سانه العود الديانى جرجرا

يريدانها كناية عن نفى الموصوف بنفى صفته الملازمة لـه كقولهم : (ولا ترى الضب بها ينجحر) [١] .

وحمل الفخر أمر العدول فى الترتيب علـى مراعـاة أحـوال البشر .

وذلك أن من كان ميله إلى حب المال أشد فى ميله إلى علـو النفس فإنه يقدم التمسك بالشافعين على إعطاء الفدية، ومـن كـان بالعكس يقدم الفدية على الشفاعة ، ففائدة تغيير الترتيب الإشارة إلى هاتين الصفتين [٢].

اللعب واللهو :

ومن ذلك تقديم اللهو على اللعب وتأخيره عنه يقول تعالى : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ [٣]، وقوله تعالى : ﴿وَذَرِ الَّـذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [٤] وفى سورة الأعراف قوله تعالى: ﴿قَـالُواْ إِنَّ اللّـهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ۞ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًـا وَغَـرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾[٥]وفـى سـورة العنكبـوت:﴿ وَمَـا هَـذِهِ الْحَيَـاةُ الـدُّنْيَا إِلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ [٦] وفى سورة محمد : ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ [٧] وفى سورة الحديد : ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ [٨] .

---

(١) التحرير والتنوير مدج ١ صـ٦٩٨ ـ ٦٩٩ .
(٢) التفسير الكبير جـ٣ صـ٥٨ .
(٣) سورة الأنعام الآية ٣٢ .
(٤) الأنعام ٧٠ .
(٥) سورة الأعراف الآية ٥١ .
(٦) سورة العنكبوت الآية ٦٤ .
(٧) سورة محمد الآية ٣٦ .
(٨) سورة الحديد الآية ٢٠ .

ويلحظ تقديم اللهو على اللعب فى موضعين فقط فى الأعراف والعنكبوت، وإنما قدم اللعب فى الأكثر لأن اللعب زمانه الصبا، واللهو زمانه الشباب ، وزمان الصبا مقدم على زمان الشباب، يبينه ما ذكر فى سورة الحديد: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ .

وقدم اللهو فى الأعراف ، لأن ذلك فى شأن القيامة، فذكر على ترتيب ما انقضى ، وبدأ بما به الإنسان انتهى من الحالتين، وأما فى العنكبوت فالمراد بذكرها زمان الدنيا ، وأنه سريع الانقضاء، قليل البقاء: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾ [1] أى الحياة التى لا أمد لها ، ولا نهاية لأبدها ، بدأ بذكر اللهو لأنه فى زمان الشباب، وهو أكثر من زمان اللعب ، وهو : زمان الصبا[2][3] .

المال والبنون :

تقديم المال على البنين وتأخره عليه : يقول تعالى : ﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [4] ، فإنما قدم الأموال ههنا لأنه فى معرض ذكر الافتتان ، ولا شك أن الافتتان بالمال أدخل من الافتتان بالأولاد لما فيه من تعجيل اللذة والوصول إلى كل مسرة والتمكن من البسطة والقوة بخلاف آية القناطير : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ﴾ [5] فإنه إنما قدم البنين فيها لأنها مذكورة فى معرض الشهوة وتمكين المحبة[6].

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٦٤ .
(٢) أسرار التكرار صـ٦٩ .
(٣) حلاك التنزيل جـ١ صـ٤٤٤ .
(٤) سورة الأنفال الآية ٢٨ .
(٥) سورة آل عمران الآية ١٤ .
(٦) خصائص التراكيب د. محمد أبو موسى .

ولذلك نلحظ إيثار التعبير الحكيم البدء بذكر محبة النساء وقدمهن على الكل ، لأن تعلق الشهوة بهن أشد والاستئناس بهن أتم، وثنى بحب الولد، لما كان حب الولد ، لا جرم خصه الله تعالى بالذكر ووجه التمتع بهم ظاهر من حيث السرور والتكثر بهم إلى غير ذلك . وثلث بالقناطير المقنطرة من حيث كونها الوسيلة فكأن تقديم النساء بالنظر إلى أنهن الغاية ووجود البنين ناشئ بهن .

النصارى على والصابؤن وتأخره عليه :

ورد تقديم النصارى على الصابئين على حين ورد الأمر على خلاف ذلك فى سورتى المائدة والحج يقول تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١) .

وفى المائدة يقول تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٢).

كما ورد فى الحج قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ... ﴾ (٣) .

وتقديم النصارى فى موقع البقرة لكونه الأنسب على مقتضى ترتيب هذا النسق، حيث بدأ التعبير القرآنى بذكر أهل الإيمان، إذ هم الأحق بالتقديم لكونهم الأجدر لجريان ما هو الغرض بالإخبار من حصول الأجر وانتفاء الخوف والحزن عنهم .

ثم إن أهل الكتاب يلون المؤمنين فإنهم ليسوا منكرين لسائر الرسل ولا كافرين بكل ما نزل أو الشأن فيهم ذلك، فهم بذلك أقرب

(١) البقرة : اية ٦٢ .
(٢) المائدة : آية ٦٩ .
(٣) الحج : آية ١٧ .

إلى أهل الإيمان من غيرهم من الطوائف والنحل الأخرى لولا أن منهم من عمد إلى التبديل والتحريف، ومعلوم أن اليهود أقدم عهدا وأسبق زمانا فحيث جمع النظم الكريم فى هذا السياق بين أهل الإيمان وأهل الكتاب يهودا ونصارى، صار الترتيب بذكر المؤمنين أولا، واليهود ثانيا، والنصارى من بعد الأليق بأحوال كل فريق تنبيها على درجة استحقاقه لهذا الوعد الكريم، وأخر ذكر الصابئين عن هؤلاء الأصناف تنبيها على أنهم ليسوا من أهل كتاب، أو ليسوا مثلهم فى ما وراء ما ذكر من أحوالهم، فإيراد ذكرهم على ما فى سورة البقرة بين، ثم قدم ذكر الصابئين فى سورة المائدة ، زيادة بيان للغرض المذكور من أنه لا ترتيب فى الغاية الأخراوية إلا بنظر آخر لا بحسب الدنياوى والاشتراك فيما قبل الموافاة بل المستجيب المؤمن من الكل مخلص، والمكذب متورط، ثم مراتب الجزاء بحسب الأعمال ولعظيم ما جرى على من لم يؤمن منهم من اليهود، وترددت فيهم عدة آيات وذلك مما يستدعى تقديم ذكرهم على من عدا المؤمنين ، ولا يقال إن النصارى مثلهم إذ هم أقرب إلى الصابئين، لقولهم بالتثليث، ثم إنهم لم يجر لهم ذكر من قبل هذه الآية بخلاف اليهود، فظهر بذلك وجه تقديم اليهود عليهم، وإن كان اليهود شر الطائفتين.

ومجئ اسم الصابئين مرفوعا فى موقع المائدة (والصابئون) إشارة إلى الغرض المذكور وتأكيدا للتسوية فى الحكم، لأن قطع اللفظ عن الجريان على نسق ما قبله محرك للذهن، مستثير للتساؤل عن داعيه، وهذا الاستعمال عند سيبويه مقدم من تأخير وكأنه لما ذكر حكم المذكورين سواهم قيل والصابئون كذلك، أى لا فرق بين الكل فى الحكم الأخراوى[1].

(١) الكتاب جـ صـ

وأما آية الحج فإنما وردت معرفة بمن ورد فى القيامة على ما كان عليه حاله من يهودية أو نصرانية أو غير ذلك، والآى الاخر فيمن ورد إليها مؤمنا، فافترق القصدان واختلف مساق الآى بحسب ذلك[1].

ومن هنا نلحظ إفراد موقع الحج بذكر المجوس والذين أشركوا ، إذ المقصود هنا الفصل بين سائر الناس من آمن ووحد ومن أبى وأشرك .

ما قدم وأخر مع النفى :

وهذا نظير قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾[2] ، وقوله تعالى : ﴿لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾[3] فإنما آثر التعبير الحكيم تأخير الظرف مع الآية الكريمة الأولى، إذ القصد من وراء إيلاء حرف النفى لفظ الريب، نفى الريب الذى هو أبلغ مراتب الشك عن هذا الكتاب الكريم ، وإثبات أنه حق وصدق لا باطل وكذب، مثلما كان يدعى أمثال هؤلاء المبطلون من المشركين ومن هم على طريقتهم فى كل عصر وجيل.

ولو جيئ بهذا المتعلق مقدما فقيل فرضا لا فيه ريب لفهم من ذلك قصد التعريض بكتاب آخر فيه الريب ، فكأن المقصود حينئذ تخصيص القرآن الكريم بانتفاء الريب عنه . ويراد حينئذ نعت غيره بهذا الوصف، وهذا غير مراد هنا ، على نحو ما قصد مع قوله تعالى : ﴿لا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ فتأخير الظرف هنا يقتضى حصول النفى أصلا من غير تفضيل، وتقديمه يقتضى تفضيل المنفى عنه، وهو خمر الجنة على غيرها من خمور الدنيا ، أى ليس فيها ما فى خمر الدنيا من الغول، وهذا مثل أن يقال : لا عيب فى الدار، وقولنا: لا فيها عيب،

(١) ينظر : ملاك التأويل جـ١ صـ٢١٨ وما بعدها .
(٢) سورة البقرة الآية ٢ .
(٣) سورة الصافات الآية ٤٧ .

فالتعبير الأول ينصرف إلى نفى العيب عن الدار المراد الكلام عنها دون أن يدخل فى الغرض التعريض بنعت غيرها من الدور بالعيب، وفى التعبير الآخر يراد معنى التفضيل الحاصل من وراء التخصيص لتلك الدار بنفى العيب عنها خاصة على معنى أن ليس فى هذه الدار ما فى غيرها من عيب(١)(٢) .

وأما قوله تعالى:﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لا لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ ﴾ (٣) فالغرض انصباب النفى على اللغو، أى لا يتكلمون فى أثناء الشرب بسقط الحديث وما لا طائل تحته كفعل المتنادمين فى الدنيا على الشراب فى سفههم وعربدتهم ولا يفعلون ما يؤثم به فاعله: أى ينسب إلى الإثم لو فعله فى دار التكليف عن الكذب والشتم والفواحش، وإثما يتكلمون بالحكم والكلام الحسن متلذذين بذلك لأن عقولهم ثابتة غير زائلة(٤) .

(١) المثل السائر صـ٢١٩ .
(٢) الطراز للعلوى صـ٧٢ .
(٣) الطور الآية ٢٣ .
(٤) الكشاف جـ٤ صـ ٢٤ .

المبحث الثانى
ما قدم وأخر مع التراكيب

وكما وردت اللفظة المفردة مقدمة ومؤخرة لمعنى ومغزى مع كلا الحالين يجرى ذلك الأمر فى الجملة القرآنية أيضا، فنلحظ ورود التركيب مقدما حينا لملحظ، ثم نرى التركيب نفسه وقد أخر فى موضع أخر لملحظ أيضا .

ونظير هذا ما ورد فى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾[1] .

قدم ﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً ﴾ على قوله : ﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾ فى هذه السورة، وأخرها فى الأعراف ، يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [2] مراعاة للسياق حيث ورد قبلها الأمر بالدخول .

ولم يوجه أمثال أبى السعود لاختلاف فى الترتيب، واكتفى بأن المراد مجرد الجمع بين الأمرين[3] .

ومفاد كلام الفخر أنه يحسن تقديم كل واحد من هذين الذكرين على الآخر، لأنه لما كان المقصود منهما تعظيم الله تعالى، وإظهار الخضوع والخشوع لم يتفاوت الحال بحسب التقديم والتأخير[4] .

وكلام صاحب التحرير أن الاختلاف فى الترتيب للتفنن[5].

---

(١) سورة البقرة : آية (٥٨) .
(٢) سورة الأعراف الآية ١٦٠ .
(٣) تفسير أبى السعود جـ٣ صـ٢٨٣ .
(٤) التفسير الكبير جـ١٥ صـ٣٨ .
(٥) التحرير والتنوير جـ٩ صـ١٤٥ .

ومن هذا الباب ما ورد فى قوله تعالى : ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (١) .

فحيث قدم هنا العبارة الدالة على التوحيد على حين وردت هذه العبارة مؤخرة فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلا هُوَ﴾(٢).

يقول ابن جماعة فى توجيه هذا التقديم والتأخير لما تقدم فى الأنعام: فناسب تقديم كلمة التوحيد النافية للشرك ردا عليهم ، ثم ذكر الخلق .

ولما تقدم فى المؤمن كونه خالقا بقوله تعالى : ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ ناسب تقديم جملة (الخلق) أولا ثم عبارة التوحيد (٣) .

ومن ذلك الضرب قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾(٤) قدم فى هذه السورة ما يدل على حاله من الكبر، وأخر ذكر حال المرأة فى مريم : ﴿وكانت امرأتى عاقر وقد بلغت من الكبر عتيا ﴾ الآية [٨] فقدم حال المرأة، لأن فى مريم قد تقدم ذكر ما يفيد بلوغه عليه السلام غاية الكبر فى قوله : ﴿وهن العظم منى﴾ الآية [٤] وتأخر ذكر المرأة فى قوله : ﴿وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا﴾ الآية[٥] ثم أعاد ذكرها فأخر ذكر الكبر ليوافق فواصل الآيات (عتيا) ما بعده من الآيات وهى (سويا الآية١٠ وعشيا الآية ١١ وصبيا الآية١٣) .

ويزيد صاحب ملاك التأويل أمر هذا التوجيه إيضاحا وتفصيلا يقول: فإن تقاطع آى سورة مريم وفواصلها استدعت ما يجرى على

(١) سورة الأنعام الآية ١٠٢ .
(٢) سورة غافر الآية ٦٢ .
(٣) كشف المعانى فى المتشابه من المثانى صـ١٦٤ .
(٤) سورة آل عمران الآية ٤٠ .

حكمها ويناسبها وذلك من قوله تعالى فى افتتاح السورة الكريمة ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۞ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيًّا ﴾ [1] إلى قوله فى قصة عيسى عليه السلام: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [2] لم تخرج فاصلة منها عن هذا المقطع ولا عدل بها إلى غيره ، ثم عادت إلى ذلك من لدن قوله تعالى:﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾[3] إلى آخر السورة فناسب ذلك ورود ما فى قصة زكريا عليه السلام على هذه النسق أيضا[4].

ما قدم وأخر مع الأفعال المتعاطفة :

وقد يجرى تقديم الجملة حينا وتأخيرها مع الأفعال المتعاطفة ومن ذلك قوله تعالى : ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء ﴾ [5] .

ورد لفظ المغفرة المعبر عنه بصيغة المضارع فى أربعة مواضع فى سورة البقرة٢٨٤ (يغفر لمن يشاء ويعذب) مقدما ، وآل عمران الآية (١٢٩)، والمائدة الآية (١٨) وسورة الفتح الآية (١٤).

وقدم فعل العذاب فى موضعين فى سورة المائدة قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاء﴾[6] بتقديم فعل التعذيب وتأخير فعل المغفرة على خلاف ما ورد فى الآى الأربع المذكورة لأن فى سياق هذه الآية ما يقتضى ذلك، حيث قد ورد قبلها قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي

(١) سورة مريم الآية ٢ .
(٢) سورة مريم الآية ٣٣ .
(٣) سورة مريم الآية ٤١ .
(٤) ملاك التأويل صـ٢٩٨ ــ ٢٩٩ .
(٥) سورة البقرة الآية ٢٨٤ .
(٦) سورة المائدة الآية ١٨ .

الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) ثم بعد ذلك قوله تعالى : ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) فساق تعالى فى هاتين القصتين خبر المحاربين والسارقين وجزاءهم ثم أعقب بذكره المغفرة إذا هم تابوا، واتبع ذلك بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ..... ﴾ (٣) وبناؤها على ما تقدمها قبلها على ما تبين ، يقتضى تقديم أمر العذاب على المغفرة فى هذه المواضع وهذا على خلاف ما كان عليه السياق مع كل من الآيات الأربع الأخرى والمقدم فيها فعل المغفرة.

ففى سورة البقرة: ﴿ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء ﴾ (٤)حيث تقدم ما يفهم منه قوة الرجاء لمن أحسن وأناب فى قوله تعالى:﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ ﴾ (٥)والخطاب للمؤمنين .

وفى سورة آل عمران : ﴿وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء ﴾ (٦) .

فقد ورد قبلها قوله تعالى:﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾(٧) فحيث قدم تعالى فعل التوبة على فعل التعذيب ناسب ذلك تقديم ما يترتب على التوبة من حصول المغفرة.

---

(١) سورة المائدة الآية ٣٣ .
(٢) سورة المائدة الآية ٣٨ .
(٣) سورة المائدة الآية ٤٠ .
(٤) سورة البقرة الآية ٢٨٤ .
(٥) سورة البقرة الآية ٢٨٤ .
(٦) سورة آل عمران الآية ١٢٩ .
(٧) سورة آل عمران الآية ١٢٨ .

وفى سورة المائدة قوله تعالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء ﴾ [1] فقد ورد قبلها قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ وهذا الخطاب وإن كان موجها لأهل الكتاب إلا أن معه تنبيها لهم إن هم أسلموا رجوا عفوه ومغفرته . فتقديم فعل المغفرة إذن أنسب بمعنى الترغيب وفى سورة الفتح قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء ﴾ [2] ورد قبلها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ [3] فالكلام فى سياق إعلام النبى عليه الصلاة والسلام بعظم منزلته وما منحه الله اياهم وكذا الإعلام بحال المخالفين من الأعراب، وفى ذلك تثبيت للمؤمنين ومنبئ بما يترتب على استجابتهم لله ولرسوله، واتبع ذلك بما يدل على أن الله سبحانه وتعالى المالك للأمر كله والمتصرف فى ملكه كيفما يشاء فقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[4] ،وأفهم ذلك أن أمر المخلفين من الإعراب غير خارج عن مراده تعالى وأن مخالفتهم لا تضره سبحانه وتعالى شيئا .

وعلى ذلك فقد ظهر أمر ملاءمة تقديم المغفرة على العذاب فى هذه المواضع وتقديم العذاب على المغفرة فى موضعى المائدة فجاء كل على حال يناسب خصوص سياقه والغرض منه[5].

(١) سورة المائدة الآية ١٨ .
(٢) سورة الفتح الآية ١٤ .
(٣) سورة الفتح الآية ١٠ .
(٤) سورة الفتح الآية ١٤ .
(٥) ملاك التأويل جـ١ ـ٢٨٣ ، ٢٨٤، ٢٨٥ .

ورد تقديم جملة التعذيب على جملة المغفرة أيضا وإن كان على صياغة التركيب الشرطى فى قوله تعالى : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١).

واضح أن إيثار تقديم شرطية التعذيب على شرطية المغفرة هنا على خلاف الأكثر الأعم من تقديم أمر المغفرة، لأن السياق هنا فى شأن من استوجبوا على أنفسهم سوء العقاب وأشد العذاب بحكم بالغ الوعيد والإنذار لهؤلاء، ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾(٢) بعدما أجيبوا عن ما اقترحوا، ومع اجترائهم ، حين صرحوا لعيسى عليه السلام بما يرجون وقد أبرزوا ذلك على حال من سوء الأدب، حيث أوردوا مقترحهم فى صياغة منبئة عن سوء (بغيتهم) القصد وقبح المعرض، ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء ﴾(٣) ومع ذلك فقد أجيبوا لما أردوا، ونزلت عليهم المائدة، ثم لم يكن منهم من بعد سوى الجحود وافتراء الكذب على نبيهم، وإدعائهم عليه ما لا يتصور من مثله، فكانوا لهذا أهل ذلك العذاب الذى سبق أن انذروا به على هذا النحو المبالغ فيه على نحو ما تنبئ به عبارته إذن فالمقام والسياق والغرض ينادى العذاب لأمثال هؤلاء وإنما سيق أمر المغفرة من بعد على هذا النمط التعبيرى إشعارا ببالغ اقتداره تعالى وكمال مشيئته، مع أن القوم المتحدث فى شأنهم محكوم عليهم بمقتضى الوعيد الإلهى السابق ببالغ العذاب، إلا أنه لما كان فى الغرض الدلالة على كونه تعالى هو الفعال لما يشاء ويختار، كان الإرداف بجملة المغفرة دالة على هذا، كى لا يكون بين مراده تعالى وبين إنفاذه حاجب أو مانع، وهنا نلحظ

(١) سورة المائدة : آية ١١٨ .
(٢) سورة المائدة الآية ١١٥ .
(٣) سورة المائدة الآية ١١٢ .

الحكمة من إيثار ختم النظم الكريم بما قد لا يتوقع ﴿فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ إشارة إلى أن حصول المغفرة منه تعالى متى شاء ذلك عن غلبة وسلطان لا إلى شئ مما قد يقع فى النفس أو يتوهم لحكم قد تغيب أو لا تقوى العقول على تبصرها .

ومما يجرى على هذا الطريق كذلك ما كان عليه عرف الاستعمال القرآنى من إيثار تقديم فعل الرحمة على فعل العذاب سوى موضع واحد قوله تعالى : ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَيَرْحَمُ مَن يَشَاء﴾ [1] بتقديم العذاب على الرحمة فى هذه السورة فحسب، وتوجيه الكرمانى لأن إبراهيم عليه السلام خاطب به النمروز وأصحابه، وأن العذاب وقع بهم فى الدنيا[2].

وهذا التوجيه محل نظر حيث أن هذا النظم الكريم تال لتوعد كفار قريش وأمثالهم بعدما ذكر من قصص إبراهيم مع قومه .

ومساق الآيات الكريمة السابقة على هذا النحو .

قال تعالى: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ ۞أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۞قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ يُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَيَرْحَمُ مَن يَشَاء وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ [3] .

فبعدما أورد النظم الكريم النشأة الآخرة عقب بما يكون منه وهو تعذيب أهل التكذيب السابق خطابهم (وأن تكذبوا) عدلا وحكمة، وإثابة أهل الإنابة فضلا ورحمة

(١) سورة العنكبوت الآية ٢١ .
(٢) أسرار التكرار صـ١٦٣ .
(٣) سورة العنكبوت الآيات ١٨ ــ ٢١ .

وإنما قدم فعل التعذيب (يعذب) على فعل الرحمة (يرحم) مع أن رحمته تعالى سابقة كما روى ذلك عليه الصلاة والسلام عن ربه "سبقت رحمتى غضبى " فلسبق ذكر الحديث عن أهل الكفر، ذكر فعل العذاب هنا لسبق ذكر من استوجبوه على أنفسهم بتماديهم فى أمر التكذيب على مقتضى الإيعاد والتهديد ، وأعقب ذلك بذكر الرحمة فى هذا السياق خاصة لئلا يكون العذاب مذكورا وحده بما يتعارض وحال مشيئة تعالى وكونه فعالا لما يريد وهذا يحقق قوله تعالى "سبقت رحمتى غضبى" فحيث كان الغرض هنا ينصرف أصلا وبالذات إلى ذكر العذاب توعدا لم يفرده تعالى فى الذكر بل أردف بالرحمة أيضا حتى يظل باب الرجاء منه تعالى مفتوحا.

وهنا أمر مهم ينبغى التنبيه عليه والتنبه له، ولا يبعد عما نحن بصدده وذلك أن التعبير القرآنى آثر تعليق كل من فعلى العذاب والرحمة بالمشيئة ﴿يعذب من يشاء﴾ ، ﴿ويرحم من يشاء﴾ دون يعذب العاصى أو الكافر، ويرحم المؤمن، وأمثال هذا مع ما قد يبدو فى ظاهر الأمر من كون ذلك المقدر فرضا فى غير النظم الكريم من كونه ازجر وادخل فى باب التهديد والإنذار ، وهذا هو الغرض، فظاهر التعبير ﴿يعذب من يشاء﴾ لا يزجر الكافر لجواز أن يقول لعلى لا أكون ممن يشاء الله عذابه، ولكن حقيقة الأمر أن هذا الوارد فى النظم الحكيم أبلغ فى أداء المراد من التخويف، وذلك أنه تعالى أثبت بما ذكر من أمر المشيئة إنفاذ مشيئته، إذا أراد إيقاع التعذيب على من شاء لم يمنعه مانع، ثم أنه كان من المفهوم والمعلوم للعباد بحكم الوعد والوعيد أنه شاء تعذيب أهل العناد ، فيلزم من ذلك تمام الخوف، بخلاف ما لو ذكر يعذب العاصى، فإنه لا يدل على كمال مشيئته؛ لأن التعبير على هذا النحو لا يفيد أنه تعالى لو شاء عذاب المؤمنين لعذبهم وإذا لم يفد التركيب هذا فيمكن للكافر أن يقول إذا لم

يحصل مراده تعالى فى تلك الصورة يمكن أن يحصل فى صورة أخرى، ويوضح الفخر هذا فيقول: إذا قلنا إن الملك يقدر على ضرب كل من فى بلاده، وقال من خالفنى أضربه يحصل الخوف التام لمن يخالفه، وإذا قيل إنه قادر على ضرب المخالفين ولا يقدر على ضرب المطيعين ، فإذا قال من خالفنى أضربه يقع فى وهم المخالف أنه لا يقدر على ضرب فلان المطيع، فلا يقدر على أيضا لكونى مثله ، وفى هذا فائدة أخرى وهو الخوف العام والرجاء العام ؛ لأن الأمن الكلى من الله يوجب الجراءة فقد يفضى إلى صيرورة المطيع عاصيا[1].

الضر والنفع تقديما وتأخيرا وهما فعلان :

والمتابع لاستعمالات النظم القرآنى وطرق أدائه ودروب تعبيره يلحظ ورود الضر والنفع على نظم تركيبية وعلى أكثر من طريق من حيث الصياغة.

والمهم هنا ما كان الجمع بينهما بطريق صياغة الفعل .

الجمع بين الضر والنفع على صياغة الفعل المضارع فى ثمانيه مواضع، قدم فعل الضر فى ثلاث على حين قدم النفع فى خمسة مواضع قوله تعالى فى سورة البقرة:﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ﴾[2] وقوله تعالى فى سورة يونس : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ ﴾ [3] وقوله تعالى فى سورة الحج: ﴿يَدْعُو مِن دُونِ اللّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنفَعُهُ ﴾ [4] .

وأما مواقع تقديم فعل النفع على الضر : قوله تعالى فى سورة الأنعام:﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا ﴾ [5] .

---

(١) التفسير الكبير جـ٢٥ صـ٤٩ ـ ٥٠ .
(٢) سورة البقرة الآية ١٠٢ .
(٣) سورة يونس الآية ١٨ .
(٤) سورة الحج الآية ١٢ .
(٥) سورة الأنعام الآية ٧١ .

وفى سورة يونس يقول تعالى : ﴿وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ﴾ (١) .

وفى الأنبياء قوله تعالى : ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ﴾ (٢) .

وفى الفرقان قوله تعالى : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ﴾(٣) .

وفى الشعراء قوله تعالى : ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۞أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ (٤) .

وتعليل الكرمانى لتقديم الضر على النفع؛ لأن العابدين يعبدون الله خوفا من عقابه أولا ، وطلبا فى ثوابه ثانيا ولأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح كما هو معلوم ، على ما يفاد من قوله تعالى: ﴿يدعون ربهم خوفا وطمعا﴾(٥) .

وأما قوله تعالى: ﴿يدعوننا رغبا ورهبا ﴾ (٦) فهى فى سياق الحديث عن نوع راق من البشر ألفوا العبادة حتى تحولت إلى تمام معرفة وحب لله تعالى إذ الحديث عن شأن من شئون الأنبياء عليهم السلام .

وإن كان هذا التوجيه العام لا يمنع محاولة التماس ما وراء كل سياق إذ المعول عليه أبدا فى جانب الفهم البلاغى الاقتراب من خصوص السياقات والأحوال، وما يتصل بالكلام من قرائن .

(١) سورة يونس الآية ١٠٦ .
(٢) سورة الأنبياء الآية ٦٦ .
(٣) سورة الفرقان الآية ٥٥ .
(٤) سورة الشعراء الآية ٧٣ .
(٥) سورة الأنبياء الآية
(٦) سورة الأنبياء الآية

وكذلك جاء بلفظ الفعل لسابقه معنى يتضمن ضررا ، أما سورة الأنعام ففيها : ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا ﴾ (٧٠) ثم وصلها بقوله تعالى : ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا ﴾ (٧١) وفي يونس تقدمه قوله تعالى : ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٠٣) ثم قال تعالى : ﴿وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ ﴾ (١٠٦) ، وفى الأنبياء تقدم قول الكفار لإبراهيم فى المجادلة : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاء يَنطِقُونَ ﴾ ثم قال:﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ ﴾ (٦٥)، (٦٦)، وفى الفرقان تقدمه قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ (٤٥) وعد نعما جمة فى الآيات ثم قال:﴿ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم﴾[1].

السمع والبصر

جرى عرف الاستعمال القرآنى متى يجمع بين السمع والبصر يقدم السمع لكونه الأسبق والأهم فى جانب المدركات سوى موضع واحد وهو مما يدخل فيما نتحدث عنه قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [2] ، وتقديم فعل الأبصار فى هذا السياق لكونه الأنسب بحال هؤلاء الوارد الحديث عنهم .

إذ أن هذا النظم الكريم فى معرض تفصيل بعض أحوالهم بعدما رأوا بعين اليقين ما كانوا يكذبون وينكرون، فقد صار أمر المبعث والمحشر أمامهم ماثلا ومشهودا .

إذن فهم قد عاينوا وأبصروا ما كان غيبا وأخبروا به من قبله تعالى على لسان رسوله عليه الصلاة والسلام فتقديم الأبصار؛ تقديم لتلك الحال المشاهدة.

(١) أسرار التكرار صـ٩٢ .
(٢) سورة السجدة الآية ١٢ .

ولأن النظم الكريم فى معرض إبراز بالغ ما صاروا إليه من خجالة آثر طى لفظ القول، إذ الأصل قائلين أو يقولون أبصرنا وسمعنا إشارة إلى غاية خجالتهم لأن الخجل العظيم الخجالة لا يتكلم ، وكأن ما عليه من حاله يسكته .

ومن هنا يفهم أيضا ما وراء التعبير (عند ربهم) فذلك لبيان شدة ما عليه حالهم من الخجل الشديد لأن المربوب إذا أساء إلى ربه، ثم وقف بين يديه يكون فى غاية الخجالة وبخاصة إذا ما رأى وعاين ما سبق أن حجده وأنكره[1]

(١) التفسير الكبير جـ٢٥ صـ١٧٨ .

الفصل الثانى
ما قدم وآخر من القيود
المبحث الأول : ما قدم وأخر والقيد مفعول

وإذ مضى الحديث عما قدم وأخر من طرفى الإسناد والتركيب ، يجرى الحديث هنا مع القيود ، وهذا كثير وتحتـه معـانى جليلـه يبديها أو يجليها مراقبة السياقات والبصر بالمعانى والأغراض .

ومثله قوله تعالى:﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا من قَبْلُ ﴾ [1]

وفى سورة المؤمنون: ﴿لَقَدْ وُعِدنَا نَحنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا من قَبْلُ ﴾ [2] .

قال الزمخشرى[3] : فإن قلت قدم فى هذا الآيـة يعنـى أيـة النمل، (هذا) على (نحن وآباؤنا) وفى آية أخرى قدم (نحن وآباؤنـا) على (هذا) قلت: التقديم دليل على أن المقدم هو الغـرض المعتمـد بالذكر ، وأن الكلام إنما سيق لأجله ، ففى إحدى الاثنين دل على أن اتخاذ البعث هو الذى تعمد بالكلام وفـى الأخـرى علـى إن اتخـاذ المبعوث بذلك الصدد ، أراد أن كلمة ــ هذا ــ تشير إلى البعث بعـد الموت، وفى الآية التى ينصرف فيها الحديث إلى اسـتبعاد البعـث ، وأنه محال فى نظرهم ، قدم ما يشير إليه أى قولهم (هذا)، انظر إلى سياق الآية : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ۞لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِـن قَبْـلُ ﴾ [4]، نجـد أن الشـبهة المستحكمة هى أنهم صاروا هم وأباؤهم ترابا، ويبعد عنهم أن يبعثوا بعد صيرورتهم ترابا، والآية الثانية سياقها هكذا : ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ ۞ قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۞

(١) سورة النمل الآية ٦٨ .
(٢) سورة المؤمنون الآية ٨٣ .
(٣) الزمخشرى جـــ صـــ
(٤) سورة النمل الآية ٦٧ ، ٦٨ .

لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ ﴾[1] تجد أنها تشير إلى أصالتهم فى العناد والكفر،وأن التقليد ومحاكاة الآباء هو الأمر المستحكم عندهم، يقولون المقالة الموروثة غافلين عن الآيات والحجج الى تخاطب العقول، فقد قال لهم من قبل أن يقول هذه المقالة : ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلا مَّا تَشْكُرُونَ ۞ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۞وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ۞ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ ۞ قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ﴾ [2] فهم لم يهتموا بالأدلة المساقة ولم يناقشوها لأن قلوبهم انطوت على مقالة الأولين ، فقالوا: ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ ﴾ وفيه من الدقة والإحساس بأخفى ما فى السياق ما نرى[3].

ومما يجرى على هذا الطريق أيضا قوله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللّهُ ﴾ [4] ، وفى سورة يونس قوله تعالى : ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاءَ اللّهُ ﴾ [5]، لأن أكثر ما جاء فى القرآن مما ذكر من لفظى الضر والنفع معا جاء بتقديم لفظ الضر على النفع ، لأن العابد يعبد معبوده خوفا من عقابه أولا ، ثم طمعا فى ثوابه أيضا، يرشد إلى ذلك نظير قوله تعالى: ﴿يدعون ربهم خوفا وطمعا﴾ ، وحيث تقدم النفع على الضر تقدم لسابقه لفظ تتضمن نفعا وذلك فى ثمانية مواضع ثلاثة منها بلفظ

(١) سورة المؤمنون الآية ٨١ ــ ٨٣ .
(٢) سورة المؤمنون الآيات ٧٨ ــ ٨٢ .
(٣) البرهان فى علوم القرآن جـ٣ صـ٢٨٤ وينظر خصائص التراكيب ص ٢٩٤ .
(٤) سورة الأعراف الآية ١٨٧ .
(٥) سورة يونس الآية ٤٩ .

الاسم وهى: هنا والرعد، وسبأ، وخمسة بلفظ الفعل على ما مر تفصيله فى موضعه .

أما فى موضع الأعراف فقد تقدمه : ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ﴾[1] فقدم الهداية على الضلالة. وبعد ذلك جاء هذا التركيب : ﴿لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾ [2]، فقدم الخير على السوء، فلذلك قدم النفع على الضر.

وفى الرعد تقدم : ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [3] تقدم الطوع، وفى سبأ تقدم : ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ ﴾ [4] فقدم البسط.

وأما تقديم الضر على النفع اسما، فقد وقع فى ستة مواضع الموضع الأول قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [5] ، فتقديم الضر على النفع هنا لأن التحرز عنه أهم من تحرز النفع.

الموضع الثانى قوله تعالى : ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاء اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [6] وتقديم الضر على النفع هنا أنسب بالمراد، حيث إن هؤلاء المجادلين قد كان منهم استبطاء ما فيه مضرتهم وهو الوعيد، فكان سبق ذكر الضر أبلغ .

الموضع الثالث : قوله تعالى : ﴿ أَفَلا يَرَوْنَ أَلا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلا وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا ﴾ [7] .

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٧٨ .
(٢) سورة الأعراف الآية ١٨٨ .
(٣) سورة الرعد الآية ١٥ .
(٤) سورة سبأ الآية ٣٦ .
(٥) سورة المائدة الاية ٧٦ .
(٦) سورة يونس الآية ٤٩ .
(٧) سورة طه الآية ٨٩ .

والسياق الكريم فى معرض تسفيه أولئك الذى ارتضت عقولهم اتخاذ العجل معبودا ، وتقديم الضر لأن السياق لا يقتضى تقديم النفع، ولعله يلمح من وراء تقديم الضر فى نظير هذه السياقات الإشارة إلى أن أمثال هذه المعبودات والتى ينتفى منها الضر والنفع أصلا إلا أنها لا ريب تجلب لعابديها ضررا بعبادتهم إياها، على ما يدل عليه صريح قوله تعالى : ﴿ يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ من نَّفْعه﴾ (١) بعد قوله سبحانه : ﴿يَدْعُو من دُونِ اللَّه مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنفَعُهُ ﴾ (٢) فسلب كل من الضر والنفع يعبر عن حقيقة ، وإثبات الضر يعبر عن واقع ، وبذا يزول ما يتوهم أنه تعارض أو اختلاف .

الموضع الرابع قوله تعالى : ﴿وَاتَّخَذُوا من دُونه آلهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلكُونَ لأنفُسهمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا ﴾ (٣) وتقديم ذكر (ضرا) على (نفعا) لأن دفعه مع كونه أهم فى نفسه أول مراتب النفع وأقدمها(٤).

الموضع الخامس قوله تعالى: ﴿ يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ من نَّفْعه﴾(٥) وإثبات الضر لتلك الأوثان والأصنام المتخذة من دون الله آلهة بعد سلب كل من الضر والنفع عنها فى الآية السابقة جار على طريق الترقى، إذ حقيقة أمرها أنها لا تملك لنفسها ولا لغيرها شيئا ضرا كان أو نفعا ، إلا أنها باتخاذ عابديها لها آلهة من دون الله قد جرت على عابديها العقاب، فثبت لها بهذا الاعتبار ضر حتما، ومن هنا أثبته النظم الكريم تنبيها على فساد معتقد هؤلاء وسوء مصيرهم.

(١) سورة الحج الآية ١٣ .
(٢) سورة الحج الآية ١٢ .
(٣) سورة الفرقان الآية ٣ .
(٤) تفسير أبى السعود جـ٦ صـ٢٠٢ .
(٥) سورة الحج الآية ١٣ .

الموضع السادس : قوله تعالى :﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [1] ولعل إيثار النظم الكريم تقديم الضر فى هذا السياق مراعاة لحال هؤلاء المتحدث فى شأنهم حيث كان مانعهم من النهوض بأمر الجهاد وداعيهم إلى التثاقل عنه مخافة لحوق الضرر بهم، فكان الرد عليهم بسبق ذكر الضر أنسب ليدل على أنهم وان اعتذروا مهابة الضرر،فليعجل لهم فى الجواب بما يحاذرونه فى الحقيقة.

أما تقديم بعض المتعلقات على بعض فإنه يجرى على نسق دقيق من مراقبة المعانى، ومتابعة الأحوال وهو متشعب النواحى،وحسبنا هنا أن نشير إلى ما يكشف لنا شيئا من خلال الأساليب فى هذا الباب[2].

فمن الأسس التى بنى عليها ترتيب المتعلقات أنهم يقدمون منها ما هو أوثق صلة بغرض الكلام وسياقه، انظر إلى قوله تعالى : ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم ﴾ ، قال فى الأولى ﴿نرزقكم وإياهم ﴾ ، فقدم ضمير المخاطبين على الأولاد ، وقال فى الثانية : ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم ﴾ فقدم ضمير الأولاد على المخاطبين، وذلك لأن الخطاب فى الأولى للفقراء بدليل قوله (من إملاق) المفيد أنهم فى إملاق ــ وهو الفقر الشديد ــ فكان رزقهم أهم عندهم من رزق أولادهم لأنهم فى حاجة إليه، فقدم الوعد برزقهم على الوعد برزق أولادهم، والخطاب فى الثانية للأغنياء بدليل قوله

(١) سورة الفتح ١١ .
(٢) كشف المعانى فى المتشابه من المثانى ــ لبن جماعة ــ تحقيق د/عبدالجواد خلف ــ منشورات جامعة الدراسات الإسلامية ــ باكستان .

(خشية إملاق) فإن الخشية إنما تكون من أمر لم يقع ــ بل يتوقع ــ فى وهمهم فكان رزق أولادهم فى هذا السياق هــو المطلــوب دون رزقهم لأنه حاصل فقدم الوعد برزق أولادهم على الوعد بــرزقهم ، وهذا فى غاية الدقة كما نرى[١].

وحول هذا التقديم والتأخير يذكر ابن جماعة: أن قوله تعالى: ﴿من إملاق﴾ وهو الفقر ، خطاب للمقلين الفقراء أى: لا تقتلوهم من فقر بكم، فحسن : ﴿نحن نرزقكم﴾، ما يزول به إملاقكم، ثــم قــال : [وإياهم] أى نرزقكم جميعا، وقوله تعالى : [خشية إملاق] خطــاب للأغنياء، أى خشية إملاق يطرأ لكم بســببهم، فحســن : [نــرزقهم وإياكم] بإيراد فعل الرزق على صياغة المضارع فى الموضعين دلالة على الوعد الكريم بتجدد أمر الرزق فى كل حال .

قوله تعالى : ﴿وَجَاء السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُواْ﴾ [٢] وفى سورة الشعراء : ﴿فلما جاء السحرة قالوا لفرعون﴾ [٣] وأما تقديم فرعون فى آية سورة الأعراف وتأخيره وفى آية الشــعراء فــلأن التقــدير فيهما: فلما جاء السحرة فرعون قالوا لفرعون، فاظهر الأول فى هذه السورة، لأنها الأولى ترتيبا، وأضمر الثــانى فــى الشــعراء لأنهــا الثانية[٤].

وقد يرد تقديم الكلمة وتأخيرها فى السياق الواحد نظير قوله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾ [٥].

---

(١) خصائص التراكيب د/ محمد أبو موسى .
(٢) سورة الأعراف الآية ١١٣ .
(٣) سورة الشعراء الآية ٤١ .
(٤) أسرار التكرار صـــ٥٠ .
(٥) سورة الجمعة الآية ١١ .

وتقديم التجارة فى هذا السياق على اللهو فى صدر النظم الكريم من حيث كانت المفضية أصلا إلى والانصراف عنه ﷺ إليها ، وكأن اللهو تبع ومسبب ، فقدم ما هو بمثابة الباعث على ما يسببه ويترتب عليه، ويستأنس لذلك التوجيه بما هو مروى فى أسباب النزول مع التفاوت فى إيراد القصة، ومع ذلك فقد آثر النظم الحكيم العدول عن هذا النسق بتقديم اللهو على التجارة مبالغة فى الاهتمام بأمر التجارة حيث كان البدء بها والختام لكونها أنسب بما أتبعت به (والله خير الرازقين) [1] .

فهذا التعبير مناسب للتجارة لا اللهو ثم إن تقديم (اللهو) جار على طريق ذكر المسبب وإيقاعه أولا تنفيرا وصدا عن سوء المقصد وأن لا وجه لإعذارهم فيما صاروا إليه سوى محض انصراف بما لا ثمرة وراءه ، فهو انشغال عن طريق الخير بما لا طائل منه ، وليكون ذكر اللهو أسبق ألصق بنفى الخيرية عنه.

ولعل إيثار التعبير باللهو دون الشغل كون هذا التعبير ينصرف أصلا إلى ما لا يجدى ، على نحو ما لفت إليه الراغب حين فسر ألالهاء فى سورة التكاثر، بالاشتغال عما هو أهم[2] كما أن عرف القرآن ماض على أن اللهو قد يكون أيضا ليس يلعب وذلك مفهوم من خلال ورود اللفظين متعاطفين على نحو يؤذن بالتفريق بينهما من حيث خصوص الدلالة[3] .

ومما يجرى على هذا النسق من اختلاف الموقع الإعرابى مع تقديم الكلمة وتأخيرها ما يلحظ أن عرف الاستعمال فى القرآن الكريم جرى على تقديم موسى على هارون عليهما السلام متى جمع السياق

(١) الواحد للدلالة على مزيد عناية واهتمام وإن اختلف الموقع الإعرابى.
(٢) الراغب
(٣) التفسير البيانى للقرآن الكريم جـ١ صـ٢٠٢ .

بينهما فى الأكثر ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ (١) ، ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ (٣)، فإن موسى استأثر باصطفائه تعالى له بتكليفه وكونه من أولى العزم .

وأما مجئ هارون عليه السلام مقدما فى الذكر فى قوله تعالى : ﴿بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ (٤) فلأجل مراعاة تناسب الآى، وذلك مما يحسن به نظم الكلام، ففواصل الآيات السابقة على هذا النحو (استعلى، ألقى، تسعى، موسى ، الأعلى، أتى) وكذا الحال مع الآيات اللاحقة إذ تمضى الفواصل معها هكذا أيضا (أبقى، يحيى)، وهكذا ولمثل هذا التجانس الصوتى أثر فى النفس يدركه من لان قلبه وتمرس سمعه على أمثال هذه الخصائص التعبيرية(٥) وقد كان أمثال ابن الأثير يعنون كثيرا بأمر الفاصلة القرآنية ويعتدون بها وحدها غرضا أصيلا فى بلاغة الكلام، لما فى ذلك من مراعاة حسن نظم الكلام(٦) .

(١) سورة الأنبياء : آية ٤٨ .
(٢) سورة يونس : آية ٧٥ .
(٣) سورة الأعراف : آية ١٢٢ .
(٤) سورة طه الآية ٧٠ .
(٥) البرهان جـ٢ صـ٢٥٥ .
(٦) المثل السائر جـ٢ صـ ٢١٣ .

المبحث الثانى
ما قدم وأخر مع شبه الجمل

ومما ورد والمقدم والمؤخر ظرف قوله تعالى : ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ [١] وفى العنكبوت: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ﴾[٢].

وإنما قدم الظرف (بينى وبينكم) وأخر (شهيدا) فى موقع العنكبوت لكون (شهيدا) متبوعة بجملة الوصف فى قوله تعالى[٣]:﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ حتى لا يقع فاصل بين المنعوت وجملة نعته بخلاف سورة الكهف حيث لم يرد فى سياقها وصف لشهيد فجاء الأسلوب على الأصل والقياس نظير قوله تعالى:﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾[٤].

تقديم الجار والمجرور وتأخيره فى سياق واحد :

فقد تأتى الجملة الواحدة فى سياق واحد ، ويقدم فيها المتعلق مرة ويؤخر أخرى ويكون وراء هذا التصرف مغزى جليل .

انظر إلى قوله ــ تعالى ــ : ﴿لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليهم شهيدا ﴾[٥] تأخر المتعلق على شبه الفعل فى قوله﴿شهداء على الناس﴾ وتقدم فى قوله ﴿عليكم شهيدا ﴾ ، وذلك لأن الغرض فى الأولى إثبات شهادتهم على الأمم وليس فيها معنى الاختصاص ، وفى الثانية اختصاصهم بكون الرسول شهيدا عليهم وليس مجرد إثبات شهادته عليهم ، وهكذا كان اختلاف ترتيب الكلمتين فى الموقعين مؤديا إلى هذا الفرق الجليل[٦] .

---

(١) سورة الإسراء الآية ٩٦ .
(٢) سورة العنكبوت الآية ٥٢ .
(٣) كشف المعانى صـ٢٣٥ ، ٢٣٦ .
(٤) سورة الإسراء الآية ٦٥ .
(٥) سورة البقرة الآية ١٤٣ .
(٦) خصائص التركيب أ.د/ محمد أبو موسى صـ

ونظير ما سبق ما يذكره صاحب الكشاف فى قوله تعالى : ﴿وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ قال الزمخشرى [فإن قلت: لم أخرت الصلة فى قوله : (وهو أهون عليه) وقدمت فى قوله (وهو على هين؟) يقصد ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا . قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا﴾[1] قال الزمخشرى : [قلت: هناك قصد الاختصاص وهو محزه فقيل(هو على هين)وإن كان مستصعبا عندكم أن يولد بين هرم وعاقر، وأما ههنا فلا معنى للاختصاص، كيف والأمر مبنى على ما يعقلون من أن الإعادة أسهل من الابتداء فلو قدمت الصلة لتغير المعنى] .

وقد علق ابن المنير ــ وهو معروف يتعقبه الزمخشرى كثيرا ــ على هذا بقوله كلام نفيس يستحق أن يكتب بذوب التبر لا بالحبر[2]

ومما يجرى على ما سبق قوله تعالى من تقديم وتأخير الجار والمجرور فى قوله تعالى : ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ﴾ [3] وفى سورة القمر : ﴿أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا ﴾ [4]، قدم الجار والمجرور (عليه) فى موضع "ص" لأن ما فى هذه السورة حكاية عن كفار قريش يجيبون محمدا ﷺ حين قرأ عليهم : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [5] فقالوا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ﴾ .

أما موقع القمر وتأخير الجار والمجرور فلكونه حكاية عن قوم صالح، وكان يأتى الأنبياء يومئذ صحف مكتوبة كصحف إبراهيم وموسى ، فلهذا قالوا: ﴿أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ ﴾ [6] .

---

(١) سورة مريم الآية ٨ .
(٢) الكشاف جـ٢ صـ٥٠٣ .
(٣) سورة ص الآية ٨ .
(٤) سورة القمر الآية ٢٥ .
(٥) سورة النحل الآية ٤٤ .
(٦) أسرار التكرار صـ١٨٣ .

وأقرب من هذا أن يقال قدم المتعلق عليه فى موقع ص: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ﴾ تعبيرا عن أن محل إنكارهم كونه ﷺ قد خص بذلك دونهم وهم فى وهمهم الكاذب أجدر بهذا وأحق منه وهذا مفاد كلام الفخر وأبى السعود يقول صاحب مفاتيح الغيب : (إن محمدا لما كان مساويا لغيره فى الذات والصفات والخلقة الظاهرة والأخلاق الباطنة فكيف يعقل أن يختص وحده بهذه الدرجة العالية والمنزلة الشريفة ؟ وهو المراد من قولهم ﴿أأنزل عليه الذكر من بيننا﴾ فإنه استفهام على سبيل الإنكار[1] فمناط الإنكار منهم إذن منصب عليه ﷺ حسدا وجهالة .

فكأنهم يقولون : ﴿أأنزل عليه الذكر ﴾ أى القرآن (من بيننا) ونحن رؤساء الناس وأشرافهم كقولهم :﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[2] .

وهذا بخلاف ما ورد فى القمر بتقديم الذكر وتأخير المتعلق ﴿أأنزل الذكر عليه من بيننا ﴾ فكأن إنكار قوم صالح أصلا منصرف إلى القاء الذكر عليه أى ما نزل عليه، وبذا يفهم وجه إيثار التعبير بصيغة الإلقاء لأنه يتضمن العجلة فى الفعل [3] .

ومن ذلك ما ورد فى سورة هود قوله تعالى فى قصة نوح عليه السلام : ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾[4] وفى قصة صالح بعد : ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ [5] ، فقدم

(١) التفسير الكبير جـ٢٦ صـ١٧٩ .
(٢) تفسير أبى السعود جـ٧ صـ٢١٦ .
(٣) تفسير روح المعانى جـ٢٦ صـ ٨٨ .
(٤) سورة هود الآية ٢٨ .
(٥) سورة هود الآية ٦٣ .

المجرور فى قوله: ﴿وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً ﴾، لما يفيده التقديم هنا من معنى التأكيد واختصاص الرحمة منه سبحانه وتعالى، وهذا ما لا يحصل مع التأخير، فتقديم هذا الضمير المجرور نظير التقديم في قوله سبحانه : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (١) .

ومثال هذا ما ورد فى كلام سيبويه :

لتقربن قربا جلذيا ∴ ما دام منهن فصيل حيا(٢)

فحيث بالغ قوم صالح عليه السلام فى قبح الجواب، بالغ عليه السلام فى رد مقالتهم ، فقدم المجرور لتأكيد أن الرحمة من عند الله تعالى فقال: ﴿وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ .

وبيان ذلك أن قوم صالح، عليه السلام ، بالغوا فى إساءة الجواب حين قالوا : ﴿ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ﴾ (٣) أى قد كنت مرجوا أن تسود فينا حتى تقطع عن رأيك، ونرجع إليك فى أمورنا، فرموا مقامه النبوى بحط مرتبته عنهم ، فلما بالغوا فى إساءة الجواب جاوبهم، عليه السلام، ردا لمقالهم الشنيع بقوله : ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةً مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ ، ولا شك أنه عليه السلام كذلك، وأنه على بصيرة من أمره، ولكنه خاطبهم على مثل ما يجرى فى المناظرة من فرض ما لا يفتقده المناظر على حسب منطقه، ولكنه يستدرج بذلك مناظره ليقيم الحجة عليه فيقول هب كذا على ما تقوله فعلى هذا جرى قول صالح عليه السلام:﴿ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةً مِّن رَّبِّي ﴾.

(١) سورة ص الآية ٤ .
(٢) الكتاب لسيبويه جـ ص وخزانة الأدب جـ ص .
(٣) سورة هود الآية ٦٢ .

أى كيف ترون إن كنت على حجة واضحة ويقين من ربى وآتانى منه رحمة فعصيته بموافقتكم ، فإن فعلت ذلك فمن ينصرنى ويمنعنى من عذابه ، فخاطبهم عليه السلام بطريقة فرض هذا : إن كان كذا وهو عليه السلام العليم بحاله وأنه على بينة أكد بتقديم المحروز فى قوله: ﴿ وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ (١) .

وفى الآية الثانية : ﴿وآتانى رحمة من عنده ﴾ جئ بالمتعلق مؤخرا ﴿رحمة من عنده ﴾ حيث لم يكن الغرض هنا على ما كان عليه فى الآية الأولى من أمر المبالغة فلم يكن فى مراجعة قوم نوح مثل ذلك فى هذا السياق ، لأن أقصى المفهوم من قولهم : ﴿ما نراك إلا بشرا مثلنا ﴾ إلحاقه عليه السلام بهم ومماثلته إياهم، وكلهم يقولون لو كنت رسولا لكنت من الملائكة، ولم تكن لتماثلنا، فلم يكن فى قول هؤلاء ما فى قول قوم صالح ، فجرى جوابه عليه السلام. بما يناسب ذلك الحال فقال تعالى : ﴿وآتانى رحمة من عنده ﴾ فأتى بالمتعلق (من عنده) مؤخرا على مقتضى ما يجرى عليه أصل الترتيب فى مثله(٢) .

ومما يجرى على ذلك الضرب أيضا قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ﴾(٣) وقال تعالى فى سورة المائدة : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٤) .

(١) أدب الحوار والمناظرة على جريشه.
(٢) ملاك التأويل جـ صـ
(٣) سورة النساء الآية ١٣٥ .
(٤) سورة المائدة الآية ٨ .

قدم الجار والمجرور (لله) فى سورة النساء لكونها متصلة بالشهادة، بدليل قوله تعالى : ﴿وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ﴾ [1] أى: ولو تشهدون عليهم، وأخر ذلك فى أية المائدة لكونها متعلقة بلفظ قوامين ، والخطاب هنا للولاة بدليل قوله تعالى : ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ ﴾ [2].

وإيضاح ذلك ما نراه اختلافا فى سياق الآيتين فالمخاطبون بآية النساء هم عموم المسلمين وأما آية المائدة فلخصوص الولاة .

فالتقديم فى الموقع الأول لان السياق أمر منه سبحانه وتعالى للجميع بأن من عنده شهادة أن يقوم بحقها ويشهد لله على كل من عنده حق لغيره، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ قوموا قوامين بالقسط ﴾ ، أى بالعدل، فى حال شهادتكم لله على كل ظالم حتى يؤخذ الحق منه وعلى ذلك ورد (بالقسط) مقدما لكونه من تمام قوامين إذ الفعل المأخوذ منه يتعدى إلى مفعوله بالباء، وأما لفظ (شهداء) فعلى كونها حالا من الضمير فى (قوامين)، فإن حقها فى التركيب أن ترد بعد تمام قوامين، وكذا الحال إن كانت خبرا ثانيا ، وإن جعلت صفة لقوامين فحقها إن تجئ بعده ايضا .

وأما قوله (لله) بعد شهداء متعلقة بالشهادة، وكأن المراد كونوا شهداء لله لا لنحو هوى أو ميل لجانب ذى قربى، ودليل ذلك من النظم الحكيم ﴿ولو على أنفسكم﴾ ومعلوم أن شهادة الإنسان على نفسه تعنى إقراره بالحق لخصمه،أى افعلوا ذلك لله سواء أكان عليكم أم على ذوى القربى، وسواء أكان من عليه الحق غنيا و فقيرا فانتهوا فى أمره إلى ما أمر الله تعالى به دون أن يحملكم نحو إشفاق على فقره على محاباته

(١) سورة النساء الآية ١٣٥ .
(٢) أسرار التنزيل صـ٥٨ .

كما لا يدعوكم من حاله على الغنى إلى مداراته أو إرضائه أو نحو خشية منه ، فإن الله تعالى أحق وأولى بهذا .

وأما موقع المائدة(فمعها من القرائن ما يرشد إلى كونها خطابا مع الولاة، فجئ قوله تعالى هنا (قوامين لله بالقسط) بتقديم (لله) أى لا لنفع ويكون (بالقسط) متصلا بقوامين، وكأن المراد كونوا قوامين لأجل طاعة الله تعالى بالحكم العدل حال كونكم شهداء بمعنى وسطاء بين الله تعالى وخلقه .

فالقائم على إنفاذ أحكام الله تعالى ما دام قد وفى بما عليه فهو شهيد ووليه،والرسولﷺشهيد عليه بما نقله إليه يؤكد هذا المعنى نظير قوله تعالى:﴿لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾ .

ومما يدل على خصوص هذا الخطاب بالولاة ما ورد بعد فى النظم الكريم : ﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ وذلك عام يشمل كل ذى حق ممن هو على الملة أو مخالف ممن حصلت لهم بغضة أو عداوة ، أى ليكن العدل على الجميع وفى كل حال [1] .

ومن تقديم الجار والمجرور وتأخيره قوله تعالى فى سورة يس : ﴿وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾[2]،قدم المجرور على المرفوع، لاشتمال ما قبله من سوء معاملة أصحاب القرية الرسل، وإصرارهم على تكذيبهم ، فكان مظنة التتابع على مجرى العبارة ، تلك القرية، ويبقى مخيلا فى فكره : أكانت كلها كذلك ، أم كان فيها على خلاف ذلك ، بخلاف ما فى سورة القصص وهو قوله تعالى : ﴿وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى ﴾ [3][4] .

---

(١) درة التنزيل صـ٨٤ ، ٨٥ .
(٢) سورة يس الآية ٢٠ .
(٣) سورة القصص الآية ٢٠ .
(٤) البرهان فى علوم القرآن جـ٣ صـ٢٨٤ .

قوله تعالى فى سورة المؤمنون : ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ ﴾ [٢٤] وبعده قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [١] قدم (من قومه) فى الموضع الثانى وأخره فى الموضع الأول، لما انقطعت صفة الملأ فى الآية الأولى إلى المحكى فى قولهم ، أتبع الوصف (الذين) إلى الموصوف، ثم جئ بالجار والمجرور فكان منتهى بيان فاعل قال ولم يكن كذلك القصد فى الآية الثانية، لأنها عددت أفعالا عطفت على فعل الصلة، فقدم الجار والمجرور لئلا يفصل بين الصفة وما عطف عليها، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ فكان كل ذلك مما أتبع قوله (كفروا) ولو قال: وقال الملأ الذين كفروا من قومه وكذبوا بلقاء الآخرة. لم يكن على النظم المرتضى فيما يستفصح من الكلام[٢].

وعند الكرمانى أن مرد التقديم في الآية الثانية إلى أن التأخير ملبس وذلك إنه لو قال:﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾[٣] لأحتمل أنه من مقول الذين آمنوا وكانوا مترفين فى معيشهم كما هو مقول الكفار من هذا النوع ، وهذا التقديم فى هذه الآية من براهين الإعجاز المبنى على مراعاة اختلاف السياقات[٤].

ويقول تعالى فى سورة الإسراء : ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا ﴾ [٥].

وفى سورة الكهف : ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلا ﴾ [٦].

وقدم الناس فى الموضع الأول (للناس فى هذا القرآن) لما يعطيه تقديم المجرور من معنى؟ وأيضا لدفع الثقل فيما تقارب إذ لو

(١) سورة المؤمنون الآية ٢٤ .
(٢) درة التنزيل صـ٣١٤، ٣١٥ .
(٣) سورة المؤمنون الآية ٣٣ .
(٤) أسرار التكرار صـ١٤٧ ، ١٤٨ .
(٥) سورة الإسراء الآية ٨٩ .
(٦) سورة الكهف الآية ٥٤ .

قيل فى غير النظم القرآنى: ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل فأبى أكثر الناس ألا كفورا، لجاء لفظ الناس وكأنه قد أعيد متصلا والعرف العربى يستثقل مثل هذا، ومن ثم قدم المجرور.

وحيث لم يتقدم لفظ (الناس) فى موقع الكهف، قدم (فى هذا القرآن) إذ أن تقديمه هنا أهم، فإن ذلك أبلغ فى التنبيه لكونه أعلق بالغرض وذلك أن اليهود سألته ﷺ عن قصة أصحاب الكهف وقصة ذى القرنين فأوحى الله إليه فى القرآن فكان تقديمه فى هذا الموضع أجدر، والعناية بذكره أخرى .

ويقول تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1] وقال فى سورة (فاطر) : ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [2] وأما تقديم (مواخر) فى سورة النحل على قوله (فيه) فلقوة ذكر الفعل الذى امتن الله بذكره على عباده فى هذه الآية لأنها مصدرة بقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ ﴾ ، وإذا قوى حكم الفعل فى مكان وجب أن يرتب ما يتعدى إليه على ما يقتضيه فى الأصل، وهو أن يقدم مع الفعل المتعدى إلى مفعولين: مفعوله الأول الذى أصله ان يكون معرفة ، ثم مفعوله الثانى الذى أصله أن يكون نكرة، ثم الظرف الذى هو كالفضلة فجاء الترتيب هنا على هذا النسق.

وأما تقديم المتعلق (فيه) على (مواخر) فى آية سورة فاطر فلأن الفعل الذى قدم فيها وعطف هذا عليه بولغ فى تقديم الجار

(١) سورة النحل الآية ١٤ .
(٢) سورة فاطر الآية ١٢ .

والمجرور فيه مبالغة لا مزيد عليها ، إلا تراهما قد قدما على الفعل نفسه وهو : (وفى كل تأكلون لحما طريا) فلما ورد قوله تعالى: (وترى الفلك) بعد فعل هذه صفته، وقد حصل فيه مفعولان وجار ومجرور، قوى تقديم الجار والمجرور فيه على أحد مفعوليه ليعلم أنه من جملة كلام بنى الفعل فيه على تقديم الجار والمجرور عليه[1].

ولهذا يظهر وجه تقديم المتعلق فى هذا السياق من تناسب ليأتى بناء آخر الكلام على ما كان عليه بناء أوله[2].

ويجرى على قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ﴾[3] فقدم (أموالهم وأنفسهم) وفى سورة براءة بتقديم: ﴿فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ﴾[4] مراعاة للسياق السابق فى كل من الموضعين ففى سورة الأنفال، قدم ذكر المال والفداء والغنيمة فى قوله تعالى : ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا ﴾ [5]،﴿ لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ ﴾[6] أى من الفداء[7] وأيضا: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ ﴾[8].

وأما فى سورة براءة فقد تقدم ذكر الجهاد فى قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ ﴾ [9] وقوله كذلك : ﴿كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللّهِ ﴾ [10] فقدم ذكر الجهاد فى

(١) درة التنزيل صـ ٢٦١ ، ٢٦٢ .
(٢) ملاك التأويل جـ٢ صـ٢٣٥ .
(٣) سورة الأنفال الآية ٧٢ .
(٤) سورة براءة الآية ٢٠ .
(٥) الأنفال الآية ٦٧ .
(٦) سورة الأنفال ٦٨ .
(٧) أسرار التكرار صـ٩٢ .
(٨) سورة الأنفال الآية ٦٩ .
(٩) سورة براءة الآية ١٦ .
(١٠) سورة براءة الآية ١٩ .

هذه الآية من هذه السورة ثلاث مرات ، فأورد فى الأولى:﴿بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ﴾ وحذف من الثانية ﴿بأموالهم وأنفسهم ﴾ اكتفاء بما فى الأولى ، وحذف من الثالثة : ﴿بأموالهم وأنفسهم ﴾ وزاد حذف ﴿فى سبيل الله﴾ اكتفاء بما فى الآيتين قبلها[١].

ومما يدخل فيما نحن فيه قوله تعالى : ﴿وما أهل به لغير الله﴾ [٢] قدم (به) فى سورة البقرة وأخرها فى المائدة [٣] والأنعام [١٤٥] والنحل [١١٥] لأن التقديم هو الأصل ، فإنها تجرى مجرى الهمزة، والتشديد فى التعدى، فكانت كحرف فى الفعل ، فكان الموضع الأول أولى بما هو الأصل ، وقدم فى المواضع الأخرى ما هو المستنكر وهو الذبح لغير الله، وتقديم ما هو الغرض أولى، ولهذا جاز تقديم المفعول على الفاعل والحال على صاحبه والظرف على العامل، إذا كان ذلك ألصق بالغرض من الإخبار وقد أشار إلى ذلك الألوسى[٣][٤][٥]

وقوله تعالى: ﴿وما أهل به لغير الله ﴾ قدم به فى هذه السورة وآخرها فى المائدة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ [٦] وفى آخر سورة الأنعام : ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾[٧] ، وفى سورة النمل : ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ

(١) أسرار التكرار صـ٩٣ .
(٢) سورة البقرة الآية ٧٣ .
(٣) من أسرار التكرار صـ٣٨ .
(٤) روح المعانى جـ٢ صـ٤٢ .
(٥) درة التنزيل صـ٤١ .
(٦) سورة المائدة الآية ٣ .
(٧) سورة الأنعام الآية ١٤٥ .

إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۞ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ (١).

وقوله تعالى : ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (٢) .

وقال فى سورة الأنفال : ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(٣) .

حيث يلحظ إيثار النظم الكريم تقديم الجار والمجرور به فى موضع الأنفال (قلوبكم به) وتأخيره فى موضع آل عمران (به قلوبكم)، والتوجيه لذلك إنه لما أخر الجار والمجرور فى الكلام الأول وهو قوله تعالى : ﴿وما جعله الله إلا بشرى لكم﴾ وعطف الكلام الثانى عليه، وقد وقع فيه جار ومجرور، وناسب تأخيرها فى اختيار الكلام ليكون الثانى كالأول فى تقديم ما الكلام أحوج إليه وتأخير ما قد يستغنى عنه، وأما تقديم (به) فى الآية الثانية فلأن الأصل فى كل خبر يصدر بفعل أن يليه فاعله، ومن بعد ما قد يأتى من قيد من نحو مفعول أو ظرف أو جار ومجرور، ولربما قدم المفعول على فاعله إذا ما كان هناك مقتض كلبس يراد إذهابه، كما يقع فى نحو ــ ضرب عمرا زيد لا محمدا ــ لأن المخاطب فى سياق مأمون اللبس لأن المخاطب عنده أن المضروب محمد ولا خلاف بين المتخاطبين فى أن الضارب زيد، فالمتكلم يبادر بذكر ما هو أهم وعنايته به أولى وأتم، وكذلك الحال مع الجار والمجرور فهو بمنزلة المفعول به تقديما وتأخيرا(٤).

(١) سورة النمل الآية ١١٤ ، ١١٥ .
(٢) سورة آل عمران الآية ١٢٦ .
(٣) سورة الأنفال الآية ١٠ .
(٤) ينظر درة التنزيل صـ٧٢ بتصرف .

المبحث الثالث
ما قدم وأخر من المتعاطفين قيدا

ويدخل فى هذا الباب كذلك ما نلحظه من تقديم لفظ الآخرة على الأولى فى قوله تعالى : ﴿فأخذه الله نكال الآخرة والأولى﴾[1] وقوله سبحانه : ﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾ [2] خلافا لما جرى عليه عرف الاستعمال القرآنى كثيرا من تقديم لفظ الأولى على لفظ الآخرة.

ومرد التقديم فى الآيتين إلى خصوص السياق، والغرض المراد مع كل منهما فالتقديم فى الآية الأولى يشعر بمعنى المبالغة فى أمر العذاب المتوعد به فرعون فى الآخرة، وأنه سوف يكون على حال أشد وأقسى مما أخذ به فى الدنيا، مع ما كان عليه من شدة فى الأخذ على نحو صار به عبرة ومثلا.

وأما فى آية الضحى فالتقديم لأن المقصود بالآخرة ليس المتبادر من الحياة الآخرة على ما يذكره كثير من المفسرين، وإنما المراد والله أعلم نزول الوحى مرة أخرى بعد انقطاعه زمنا عنه ﷺ ، ويؤيد هذا الفهم أن السورة الكريمة واردة أصلا فى سياق تطمينه ﷺ وبعث الأمل والرجاء فى نفسه الشريفة وانتزاع التوجس خاصة أن عمد الشرك وأركان الكفر قد انتهزوا الفرصة وأخذوا يشمتون ويتقولون، فكانت هذه الآيات المباركات دحضا لهذه المفتريات وتسكينا لفؤاده ﷺ فناسب هذا الغرض الجليل تقديم لفظ الآخرة المعبر به عن الوحى الذى سوف يدوم بشارة بما يطمئن النفس ويؤنس القلب، وهذا الغرض لا ينفى ما يذكره بعض البلاغيين من أن التقديم هنا مراعاة لحق الفواصل، فلا منافاة بين التوجيهين[3] .

---

(١) سورة النازعات الآية ٢٥ .
(٢) سورة الضحى الآية ٤ .
(٣) خصائص التراكيب د. محمد أبو موسى .

والأخذ بهما معا من أمارات ثراء عطاء النظم القرآنى حيث جمع بالتقديم والتأخير فائدة معنوية وفائدة أخرى تتصل بنظم الكلام ، ولا تزاحم بين النكات البلاغية كما هو معلوم عند أهل هذا العلم .

وقد هدى الذين نظروا فى القرآن إلى أسرار لطيفة فى هذا الباب: قالوا: إن تقديم الإنس على الجن هو الأكثر الشائع فى المصحف وذلك لشرف الإنس، حيث منهم النبيون والرسل، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان﴾[1] ، وقوله ﴿فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾[2] .

وقوله:﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّه كَذِبًا ﴾[3] أما قوله تعالى وهو ما يدخل فى أحاديثنا هذه : ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ ﴾ [4] فإنما قدم فيه الجن لأن المقام مقام تسلط واجتراء والجن بذلك أحق فلهذا قدمهم .

كما أن الغرض المقصود بمخاطبة الثقلين من قبله تعالى التحدى والتعجيز .

ويلحظ فى هذه الآية الكريمة إيثار النظم الكريم طريق الجمع مع ضمائر المخاطبين : استطعتم ــ تنفذوا ــ لا تنفذون، خلافا لمقتضى ظاهر النسق، حيث الخطاب مع نوعى الإنس والجن المقتضى لتثنية الضمائر ان استطعتما ان تنفذا لا تنفذان ومن وراء هذا العدول إشارة إلى قصد التعميم فى هذه المخاطبات، بحيث تتناول سائر أفراد كل نوع من نوعى الإنس والجن على حدة واستقلال فلا يند ولا يشز عنه أحد، وهذا التعميم دون ريب أدخل وأتم بالغرض المراد، وأنسب بمقام التحدى والتعجيز والله أعلم بحقيقة مراده .

(١) سورة الرحمن الآية ٧٤ .
(٢) سورة الرحمن الآية ٣٩ .
(٣) سورة الجن الآية ٥ .
(٤) سورة الرحمن الآية ٣٣ .

وقد يرد ذلك النمط مما قدم وأخر مع المتعلق وقد عطف أحدهما على الآخر نظير قوله تعالى : ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ﴾ [2] .

يقول الزمخشرى بيانا لما عليه حال التركيبين فى التقديم والتأخير : علم بذلك أن كلا الطريقين داخل تحت الحسن، وذلك لأن العطف فى المختلفين، كالتثنية فى المتفقين، فلا عليك أن تقدم أيهما شئت، فإنه حسن مؤد إلى الغرض[3] وقد قال سيبويه : ولم يجعل للرجل منزلة بتقديمك إياه ، بكونه أولى بهما من الجائى؛ كأنك قلت: مررت بهما، يعنى فى قولك : مررت برجل وجاءنى، إلا أن الأحسن تقديم الأفضل، فالقلب رئيس الأعضاء، والمضغة لها الشأن، ثم السمع طريق إدراك وحى الله، وكلامه الذى قامت به السموات والأرض وسائر العلوم التى هى الحياة كلها[4].

وتقديم ختم قلوبهم على ختم الأسماع أنسب بخصوص هذا السياق والغرض المراد ، إذ معه إيذان بأنه الأصل فى عدم الإيمان

وللدلالة أيضا على أن ذلك الختم لم يكن بطريق التنبيه لختم أسماعهم بناء على أن السمع طريق إليها ، فالختم على السمع ختم على القلوب، بل يراد إفادة حدوث الختم عليها استقلالا ، بحيث لو فرض بقاء أسماعهم على حالها وعدم الختم عليها حسبما يفصح عنه قوله تعالى : ﴿ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾ [5]. وما أفادهم بقاء أسماعهم .

(١) سورة البقرة الآية ٧ .
(٢) سورة الجاثية الآية ٢٣ .
(٣) الكشاف جـ١ .
(٤) الكتاب سيبويه جـ
(٥) تفسير أبى السعود جـ ١ صـ٣٦ .

إذ المراد أحداث حالة فى القلب تجعله بسبب تمادى أفعال هؤلاء فى الغى وإنهماكهم فى التقليد ، وإعراضهم عن المنهاج الصحيح بحيث لا يؤثر فيهم إنذار حتى ولو بقيت معهم وسائله الموصلة فى العادة وهى آلة السمع ، إذن فالمبادرة بذكر ختم القلب والبدء به أولى وأدل فى هذا الموضع على ما آل إليه حال هؤلاء على نحو لا يرجى معه لهم رجوع إلى الطريق السوى .

السماء والأرض :

وبالنظر فيما ورد من لفظى السماء والأرض فى النظم القرآنى نلحظ مجيئ هذين اللفظين على طرق استعماليه مختلفة، وضروب تعبيرية شتى، تقديما وتأخيرا، إفرادا وجمعا على طريق العطف فى أكثر الأحيان، إثباتا ونفيا، مع توسط الموصول بينهما معبرا عنه (بما) و(من) ، وكذا إتباعهما بصلة حاملة لظرفية معطوفة و(ما) بينهما أحيانا .

وما من ريب فى أن من وراء كل طريق واستعمال معنى جليلا، ومغزى يلائم سياق وحال كل تعبير فى موقعه، والنظر الدقيق والواعى بمتصرفات الأساليب وطرق صياغة الكلام وبخاصة فى مثل تلك الأساليب العالية ، والبصر بدلالات الكلمات فى سياقاتها، كل ذلك ونحوه يهدى دون ريب إلى تبصر شئ أو أشياء من أسرار بلاغة أمثال هذه التراكيب .

والدراسة هنا تجتهد فى أن تقترب من هذه الأساليب عرضا وتحليلا، محاولة استجلاء واستشراف ما وراء النمط التعبيرى الوارد عليه أمر هذين اللفظين،وبخاصة ما يتصل بالمقدم والمؤخر منهما .

ولنعرض أولا أبرز الطرق التعبيرية التى ورد عليهما لفظا السماء والأرض، حين جمع النظم القرآنى بينهما فى نسق واحد، كان ذلك فى آية واحدة أو آيتين ما دام الغرض يجمعهما .

فقد ورد لفظ السموات والأرض مع سبق كل منهما بمن الموصولة فقد ورد لفظا السموات والأرض متعاطفين،وتقديم السموات، واتباع الأرض بالصلة فى قوله تعالى:﴿... السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾[1].

وقد ورد لفظا السموات والأرض مع سبق كل منهما بمن الموصولة وتقديم لفظ السموات فى قوله تعالى:﴿ مَن فِي السَّمَاوَات وَمَن فِي الأَرْضِ ﴾ فى مواضع أربعة[2].

قوله تعالى : ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ [3] ٢٨ مرة .

قوله تعالى:﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ [4]مرة واحدة

قوله تعالى:﴿السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [5] فى ثلاث مواضع .

قوله تعالى:﴿مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[6] فى ١٠ مواضع .

وقد ورد لفظا السموات والأرض، بتقديم السموات وسبقها بحرف الظرفية والموصول، قوله تعالى:﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ وذلك فى اثنى عشر موضعا[7] .

---

(١) سورة المائدة ١٧ ، ١٨ ، الحجر ٨٥ ، مريم ٦٥ ، الفرقان ٥٩ ، الشعراء٢٤ ، الروم ٨ ، السجدة ٤ ، الصافات ٥ ، ص ١٠ ، ٦٦ ، الزخرف ٨٥ ، الدخان ٧ ، ٣٨ ، الأحقاف ٣ ، ق ٣٨ ، النبأ ٣٧ .

(٢) سورة يونس الآية ٦٦، سورة الحج الآية ١٨ ، سورة النمل الآية ٨٧ ، سورة الزمر الآية ٦٨ .

(٣) سورة البقرة ٢٥٥ ، ٢٨٤،آل عمران ٣ ، ٢٩ ، ١٠٩ ، النساء ١٢٦ ، ١٣١ مرتين ، ١٣٣ ، ١٧١ ، المائدة ٩٧ ، طه٦ ، إبراهيم ٢ ، يونس ٦٨، النحل ٤٩ ، الحج ٦٤ ، لقمان ٢٠ ، سبأ ١ ، الشورى ٤، ٥٣ ، الجاثية ١٣، الحجرات ١٦ ، النجم ٣١، الصف١ ، الحشر ١ ، المجادلة ٧ ، الجمعة ١ ، التغابن ١ .

(٤) سورة طه الآية ٦ .

(٥) المؤمنون ٧١ ، المائدة ١٢٠ ، الإسراء ٤٤ .

(٦) آل عمران ٨٣ ، الرعد ١٥، الإسراء ٥٥ ، مريم ٩٣ ، الأنبياء ١٩ ، النور ٤١، النمل ٦٥ ، الروم ٢٦ ، الرحمن ٢٩ .

(٧) سورة البقرة الآية ١١٦ ، سورة النساء الآية ١٧٠، سورة الأنعام الآية ١٢، ١٧٠، سورة يونس الآية ٥٥ ، سورة النحل ٥٢ ، سورة النور ٦٤ ، سورة العنكبوت ٥٢، لقمان ٢٦، الحديد ١ ، الحشر ٢٤ ، التغابن ٤ .

ومن قوله تعالى : ﴿السَّمَاء وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾عطفا وإفرادا وذلك فى موضعين[١].

ومن قوله تعالى: ﴿السَّمَاء وَالأَرْضِ ﴾ بإفراد السماء، وحذف البين فى ثلاثة عشر موضعا[٢].

ومن قوله تعالى : ﴿بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ ﴾ [٣] فى موضع واحد .

قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ﴾ [٤] فى موضع واحد

قوله تعالى :﴿ السموات السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [٥] فى موضع واحد .

ومن قوله تعالى : ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ ﴾ بتقديم السموات جمعا، مسبوقة بحرف الظرفية وتأخير الأرض مسبوقة بنفى وحرف الظرفية وذلك فى أربعة مواضع[٦].

قوله تعالى : ﴿فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ ﴾ فى موضع واحد[٧] عطفا بـ(أو) .

قوله تعالى : ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ ﴾ فى موضع واحد[٨] بإضافة كل منهما إلى وصف الربوبية مع تقديم السموات .

---

(١) سورة الأنبياء الآية ١٦ ، ص ٢٧ .

(٢) سورة البقرة ١٦٤ ، الأنبياء ٤ ، يونس ٣١ ، الحج ٧٠ ، سورة النمل ٦٤، ٧٥ ، الروم ٢٥ ، سبأ ٩ ، فاطر ٣ ، الدخان ٢٩ ، الذاريات ٢٣ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٦٤ .

(٤) سورة إبراهيم الآية ٤٨ .

(٥) سورة الإسراء ٤٤ .

(٦) سورة آل عمران الآية ٥ ، يونس ١٨ ، سبأ ٣ ، ٢٢ ، فاطر ٤٤

(٧) سورة لقمان الآية ١٦ .

(٨) سورة الجاثية الآية ٣٦ .

قوله تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾[1] فى موضع واحد بتقديم السموات جمعا مع إضافتها إلى عددها وتأخير الأرض مع العطف عليها ما تفيد عددها أيضا المماثل لعدد السموات .

لفظا السموات والأرض[2] عطفا مع تقديم السماء جمعا فى ٩٢ موضعا.

كما ورد تقديم الأرض وتأخير السموات جمعا مع العطف بينهما (الأرض والسموات) فى موضع واحد [3].

ومن قوله تعالى : ﴿فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ ﴾ [4] فى أربعة مواضع بإفرادهما وتقديم الأرض وتوسط حرف النفى بينهما .

والأمثل متابعة سياق الآيات والمواقع والتماس ما وراء التقديم والتأخير فى كل موقع .

وبالنظر إلى تعدد وكثرة المواضع التى تقدم فيها الأرض على السماء وكذا ما قدم فى السماء على الأرض وهذا أكثر لذا نكتفى

---

(١) سورة الطلاق الآية ١٢ .

(٢) سورة البقرة ٣٣ ، ١٠٧ ، ١٦٤ ، ٢٥٥ ، آل عمران ١٨٠ ــ ١٨٩ ، ١٩٠، ١٩١ ، المائدة ٤٠ ، الأنعام ١ ، ١٤ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٩ ، ١٠١، الأعراف ٥٤ ، ١٥٨ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، التوبة ٣٦ ، ١١٦ ، يونس ٣ ، ٦ ، ٥٥ ، ١٠١ ، هود ٧ ، ١٠٨ ، ١٢٣ ، يوسف ١٠١ ، ١٠٥ ، الرعد ١٦، إبراهيم ١٠ ، ١٩ ، ٣٢، النحل ٣ ، ٧٣ ، ٧٧ ، الإسراء ٩٩ ، ١٠٢ ، الكهف١٤، ٢٦، ٥١، الأنبياء ٣٠ ، ٥٦ ، النور ٣٥ ، ٤٢ ، الفرقان ٢ ، ٦، النمل ٢٥، ٦٠ ، العنكبوت ٤٤ ، ٦١ ، الروم ١٨ ، ٢٧ ، لقمان ٢٥، الأحزاب ٧٢ ، سبأ ٢٤ ، فاطر ١، ٣٨ ، ٤١ ، يس ٨١ ، الزمر٥ ، ٣٨ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٦٣ ، غافر ٥٧ ، الشورى ١١ ، ١٢ ، ٢٩ ، ٤٩ ، الزخرف ٩، ٨٢ ، الجاثية ٣ ، ٢٢ ، ٢٧ ، ٣٧ ، الأحقاف ٣٣ ، الفتح ٤ ، ٧ ، ١٤، الحجرات ١٨ ، الطور ٢٦ ، الرحمن ٣٣ ، الحديد ٢ ، ٤ ، ٥ ، ١٠ ، المنافقون ٧ ، التغابن ٣ ، البروج ٩ .

(٣) سورة طه الآية ٤ .

(٤) سورة آل عمران ٥،يونس ٦١ ، إبراهيم ٣٨ ، العنكبوت ٢٢ .

بتحليل نماذج لكلا الحالين متابعين السياقات وأغراض الكلام ومقاصده قدر ما يتسع له مجال هذه الدراسة .

مواضع تقديم (الأرض) على (السماء) :

الموضع الأول : يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَخْفَىَ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ ﴾ [1] .

السياق السابق يرشد إلى أن هذا التركيب وارد فى مقام الوعيد للكفرة والمتقولين من النصارى، فالآية المتقدمة على هذا النظم قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [2] فتقديم الأرض على السماء إظهارا للاعتناء بشأن أحوال أهلها، واهتماما بما يشير إلى وعيد ذوى الضلالة منهم، ولتكون ذكر السماء يعد من باب التعميم للدلالة على غاية علمه وشموله .

قالوا: ولذا وسط حرف النفى بينهما ، وتكرير الإسناد، لتقوية الحكم ، وكلمة ــ فى ــ متعلقة بمحذوف وقع صفة لشئ مؤكدة لعمومه المستفاد من وقوعه فى سياق النفى، أى لا يخفى عليه شئ ما كائن فى العالم بأسره كيفما كانت الظرفية، والتعبير بعدم الخفاء أبلغ من التعبير بصريح لفظ العلم[3].

قوله تعالى : ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾[4] ، تقديم الأرض على السماء لأن الكلام عن أحوال وشئون أهلها، والمراد الدلالة على إحاطة علمه تعالى بتفاصيلها ، حتى لكأن إيراد لفظ السماء تتميم للمعنى لإفادة معنى إحاطته تعالى بأطراف الكون كله، ومطلع النظم الكريم يهدى إلى هذا، فصدر هذا

(١) سورة آل عمران الآية ٥ .
(٢) سورة آل عمران الآية ٤ .
(٣) روح المعانى جـ٣ صـ٧٨ .
(٤) سورة يونس الآية ٦١ .

النظم الكريم : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ (١) .

ويذكر ابن القيم أن تقديم الأرض هنا مرده إلى مراعاة الرتبة وحسن نظم الكلام ، لأن الآية الكريمة منتظمة بذكر ما هو أقرب إليه، وهم المخاطبون بقوله ﴿وما تعملون من عمل ﴾ فاقتضى حسن النظم تقديمها مرتبة فى الذكر مع المخاطبين الذين هم أهلها، بخلاف الآية التى فى سبأ قوله تعالى: ﴿ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ ﴾ (٢) فإنها منتظمة بقوله ﴿عالم الغيب﴾(٣) إذ علم مغيبات السموات أكثر وأدل على بالغ علمه تعالى .

قوله تعالى : ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللّهِ مِن شَيْءٍ فَي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ ﴾ (٤) وتقديم الأرض على السماء مع إيقاع (لا) النافية بينهما باعتبار القرب والبعد منا ، المستلزمين للتفاوت بالنسبة إلى علومنا، والتعبير بنفى فعل الخفاء (وما يخفى) دون إيراد صريح فعل العلم تحقيقا لما عناه بقوله (تعلم ما تخفى) من أن علمه تعالى بذلك ليس على وجه يكون فيه شائبة خفاء بالنسبة إلى علمه تعالى كما يكون ذلك بالنسبة إلى علوم المخلوقين(٥).

وهذا التركيب تدليل يؤكد شمول علمه تعالى . فبعد أن ذكر أنه تعالى بعلم ما يسرونه وما يعلنونه، ذكر أنه تعالى لا تخفى عليه خافية لا فى الأرض ولا فى السماء.

وإذا كان الله عزوجل عليما بما فى الأرض والسموات لا تعزب عنه مثقال ذرة ، فإن مقصود سيدنا إبراهيم عليه السلام من

(١) تفسير أبى السعود صـ ١٥٧ ، ١٥٨ .
(٢) سورة سبأ الآية ٣ .
(٣) بدائع الفوائد جـ١ صـ٦٣ .
(٤) سورة إبراهيم الآية ٣٨ .
(٥) تفسير أبى السعود جـ٥ صـ٥٢ .

إظهار هذه الدعوات والتوجه بها إلى رب الأرض والسموات هو إظهار العبودية والتخشع لعظمة الله تعالى والتذلل لعزته وعرض الافتقار له، والاستعجال لنيل أياديه وتعليم لذريته بأن لا يتوجهوا بالطلب إلا إلى الله الواحد القهار[١] .

قوله تعالى:﴿تَنزِيلا مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴾ [٢] وإيثار تقديم الأرض على ما يذكره أبوالسعود لكونه أقرب إلى الحس وأظهر عنده[٣].

ولعل الأقرب فى التوجيه أن أمر التقديم هنا ملحوظ فيه شأن التنزيل لكون الأرض ومن عليها محلا له .

ووصف السموات بالعلى دلالة على عظم من يخلق مثلها فى علوها وبعد مرتقاها[٤] ويحصل من ذلك تعظيم شأن المنزل وهو القرآن بالضرورة، فعلى قدر المرسل يكون حال الرسالة، ومن ذلك قول الحكماء: عقول الرجال تحت لسان أقلامهم[٥] .

قوله تعالى : ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾[٦] وتقديم الأرض هنا لكونه الأنسب لحال الكلام إذ الغرض الدلالة على اقتداره تعالى على أمثال هؤلاء المكذبين والسابق توعدهم وبيان تمام المكنة منهم ، وأن ليس لهم من مهرب، فصدر النظم الكريم وارد على هذا النحو : ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ ﴾ أى بالتوارى فى الأرض أو الهبوط فى مهاويها، ولا بالتحصن فى السماء التى هى أفسح منها لو استطعتم الرقى

(١) من جمال النظم القرآنى فى سورة إبراهيم صـ٢٢٩ .
(٢) سورة طه الآية ٤ .
(٣) تفسير أبى السعود جـ٦ صـ٤ .
(٤) الكشاف جـ٢ صـ٥٢٩ .
(٥) غرائب القرآن للنيسابورى جـ١٦ صـ٩٠ .
(٦) العنكبوت الآية ٢٢ .

فيها، كما فى قوله تعالى : ﴿إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ﴾ [١] .

وفى قوله تعالى:﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاء بِنَاء﴾[٢] فتقديم الأرض من حيث كانت مستقرا للمخاطبين الجارى الحديث معهم ، فحالها بالنسبة لهم أهم ، وهم بشأنها أعنى، فكونها على تلك الحال من أنها صالحة لأمور معايشهم وأحوال رزقهم وسكناهم على هذا النحو المخلوقة عليه، ما تتعلق به نفوسهم أولا .

وهنا موضع آخر جمع فيه بين الأرض والسماء مع تقديم الأرض لكن ليس على سبيل العطف على نحو ما سبق بقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ [٣] فبدأ بذكر الأرض، لأنه فى سياق تعجيز الشركاء عن الخلق والمشاركة، وأمر الأرض فى ذلك أيسر من السماء بكثير، فبدأ بالأرض مبالغة فى بيان عجزهم، لأن من عجز عن أيسر الأمرين كان عن أعظمهما أعجز[٤].

وأما قوله تعالى : ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [٥] .

فتقديم الأرض هنا لكونها الألصق بمعرض الكلام وغرضه وقوله (فى الأرض) صفة (نفقا) أى متغلغلا، أى عميقا ــ فذكر هذا المجرور لإفادة المبالغة فى العمق مع استحضار الحالة وتصوير حالة الاستطاعة، إذ من المعلوم أن النفق لا يكون إلا فى الأرض وأما قوله

(١) تفسير أبى السعود جـ٧ صـ٣٥ .
(٢) سورة غافر الآية ٦٤ .
(٣) سورة فاطر الآية ٤٠ .
(٤) البرهان فى علوم القرآن جـ٣ صـ٢٨٦ .
(٥) سورة الأنعام الآية / ٣٥ .

(فى السماء) فوصف به (سلما) أى كائنا فى السماء، أى واصلا إلى السماء ، والمعنى تبلغ به إلى السماء، كقول الأعشى:

ورقيت أسباب السماء بسلم

والمعنى: فإن استطعت أن تطلب آية من جميع الجهات للكائنات، ولعل الابتغاء فى الأرض والسماء أن المشركين سألوا الرسول ﷺ آيات من جنس ما فى الأرض ، كقولهم (حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا) ، ومن جنس ما فى السماء كقولهم (أو ترقى فى السماء) وقد يفهم أمر هذا الترتيب بذكر الأرض أولا بأن يحمل على باب الترقى، إذ المعلوم والواقع أن اتخاذ النفق فى الأرض على كل حال أيسر وأسهل من اتخاذ سلما فى السماء .

تقديم السموات على الأرض :

وأما فى جانب تقديم السموات فالحكمه العامة لذلك أن معلوماتها أكثر، وأية الخلق فيها أدل وأعظم، كما أن السموات مجال كونى فسيح فهى بهذا أيضا أدل على علم ما غاب من حيث إن أهل الأرض لا يكادون يدرون عن أمر ما فيها سوى القليل، أما علمه تعالى فمحيط بما فيها وشوهد أوغاب[1].

وواضح أن مثل هذا التوجيه لا يتيسر الأخذ به على إطلاق أو الركون إليه لكونه أشبه بالتعليل العام، فضلا عن كونه لا ينفى أصل التساؤل حول تقديم ما قدم فى اللفظين وتأخير ما أوخر .

قوله سبحانه وتعالى:﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا﴾[2] .

فقدم (السموات) تنبيها على عظم قدرته سبحانه ؛ لأن خلقها أكبر من خلق الأرض، كما صرح به فى سورة غافر: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [3] ومن قدر على إمساك

(١) بلاغة الطباق والمقابلة معالم صـ١١٦ .
(٢) سورة فاطر الآية ٤١ .
(٣) سورة غافر الآية ٥٧ .

الأعظم كان على إمساك الأصغر أقدر وإنما عطف (الأرض) على السموات على طريق المطابقة[١] لقصد الدلالة على شمول اقتداره تعالى بحيث يعم الكون كله علوه وسفله .

قال تعالى : ﴿ عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ﴾ [٢] ، وتقديم (السموات) وتأخير (الأرض) لكون ذلك أنسب بحال الكلام هنا وسبق علم الغيب إذ السموات تشتمل على لطائف الحكمة وعجائب الصنعة ومحكم التكوين، وكثرة المعلومات كما قال تعالى : ﴿وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات﴾ بخلاف ما فى سورة (يونس) فإن تقديم (الأرض) [٣] هناك لكونها مسوقة فى شأن أهل الأرض، على نحو ما سبق إيضاحه .

ونظير هذا أيضا قوله تعالى : ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [٤] والظاهر تقديم فعل الكتمان على فعل العلن، لكون الوصف بعلمه أمدح كقوله : ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ [٥] و ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾[٦] و ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ [٧][٨] .

غير أن النظم القرآنى عدل إلى تقديم فعل العلن وتأخير فعل الكتمان فى هذا السياق اعتناء واهتماما به حيث كان افتتاح الكلام وختمه .

---

(١) البرهان فى علوم القرآن جـ٣ صـ٢٨٦ .
(٢) سورة سبأ الآية ٤ .
(٣) الطراز للعلوى جـ٢ صـ٧٦ .
(٤) سورة البقرة الآية ٣٣ .
(٥) سورة الأنعام الآية ٣ .
(٦) سورة الرعد الآية ٩ .
(٧) سورة النحل الآية ١٩ .
(٨) البرهان فى علوم القرآن جـ٣ صـ٢٨٦، ٢٨٧ .

إذن فقد ظهر أن تقديم السموات على الأرض فى موقع سبأ لسبقها بعلم الغيب وهو بأمر السماء أنسب وأتم.

وذكر السموات على طريق الجمع لكون ذلك أكثر ملاءمة لمقتضى علمه تعالى الغيوب، ففى هذا دلالة على تناول علمه سبحانه لشئون السماوات سماء سماء كل منها على حدتها على خلاف صياغة الإفراد ودلالة اسم الجنس لا تفيد تمام المعنى على هذا النحو.

ولننظر كيف جاءت السماء مجموعة كذلك مع التقديم فى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهرَكُمْ﴾ [1] فإنها مجموعة هنا لحكمة ظاهرة وهى تعلق الظرف بما فى اسمه تبارك وتعالى من معنى الإلهية، فالمعنى وهو الإله وهو المعبود فى كل واحدة واحدة من السموات، ففى كل واحدة من هذا الجنس هو المألوه المعبود، فذكر الجمع هنا أبلغ وأحسن من الاقتصار على لفظ الجنس الواحد[2].

وجاءت مجموعة أيضا فى قوله ﴿يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض﴾ فى جميع السور المفتتحة بفعل التسبيح إذ المراد الإخبار عن تسبيح سكانها على كثرتهم وتباين اجناسهم، ونظير هذا مجئ السماء مجموعة فى قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [3].

وتقديم (السموات) هنا من حيث أن جميع ما ومن فيها متحقق منهم ما أريد الإخبار به إذ جميعهم على حال من الانقياد التام فلا إباء ولا استكبار وهذا هو الأنسب بهذه السياقات من حيث أن

(١) سورة الأنعام الآية ٣ .
(٢) بدائع الفوائد جـ١ صـ١١٦ .
(٣) سورة الأنبياء الآية ١٩ .

سائر ما ومن فيها مسبح على كل معنى واحتمال بخلاف حال الأرض فإن الحال معها مختلف لشرود كثير ممن فيها وخروجهم عن مقتضى هذا الأمر تكليفا ، يؤكد على هذا المعنى ويوضحه ما ورد صريحا فى سورة الحج يقول تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ (١) فنفى هذا النظم الكريم صريح تركيبه أن السجود ثابت وحاصل لمن فى السماء وما ذكر تفصيلا من الشمس والقمر والنجوم نماذج لهذا، بخلاف أمر الأرض حيث انسلخ البشر مع كونه المكرم والمسخر له ما فى الكون مما هو ساجد ومسبح، فكما أن منه من استجاب، وكان منه ما كان من غيره ، العوالم الأخرى، فإن منه كذلك ما شذ وند وانحرف، فصار منه الإباء والعصيان .

وأما قوله تعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾(٢) وإيثار ذكر السموات والأرض والجبال فلأنها أهول ما يرى الإنسان من خلق الله وأعظمها، وبما أن السماء مع كونها أعظم هذه الثلاثة خلقا وتكوينا، كان البدء بها وتقديمها أنسب بأصل الغرض المسوق له الكلام، لما فيه من معنى الإنكار على الإنسان ، ففى ذلك إشارة إلى جسارته وإقدامه على الأمر، من غير روية ولا حسن تقدير، فهو إذن قد بالغ فى ظلم نفسه، كما أنه جهول بحقيقة حاله وقدرته على النهوض بما حمل ، على خلاف ما كان عليه ما هو أعظم منه خلقا (السموات والأرض والجبال) ، حيث كان منهم الإباء والإشفاق خوفا تقديرا للمسئولية ﴿فأبين أن يحملنها

(١) سورة الحج الآية ١٨ .
(٢) سورة الأحزاب الآية ٧٢ .

وأشفقن منها﴾ والتعبير (يحملنها) فيه إحساس بعظمها وثقلها وأنها كالأمر يحمل[1].

وفى قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [2] تقديم السموات هو الأنسب بغرض الكلام، لكون جند السماء ممن تتحقق فيهم معنى الجندية لله على أتم وجه، إذا لا يتصور معهم التخلف أو الإباء بخلاف ما عليه حال جند الأرض فقد يتصور معهم أو يقع من كثير منهم ما ينتفى به معنى الجندية لله حيث يتخاذلون أو يتثاقلون أو يعتذرون، إلى أمثال تلك الأمور التى تعترى أحوالهم .

وهذا الملمح فى التفريق بين تقديم السماء حينا وتأخيرها مع تقديم الأرض مع أفراد السماء حينا وجمعها أحيانا أخرى له من المعانى والدلالات واللطائف ما يستدعى التأمل ومتابعة سياق كل مقام، ولعل فيما ذكرت نماذج تمضى على هذا الطريق والمرجو أن تقر وبدراسة خاصة لعلى أفرغ لها يوما أن يقوم بها غيرى والله ولى التوفيق .

((والحمد لله أولاً وأخيراً والذى بيده سبحانه وتعالى تمام الصالحات))

(١) من أسرار التغير القرآنى ــ د/ محمد أبو موسى .
(٢) سورة الفتح الآية ٤ .

المصادر والمراجع

أولا : القرآن الكريم ٠

ثانيا :

١ – أثر النحاة فى البحث البلاغى . د/ عبدالقادر حسين ط نهضة مصر ٠
٢ – أدب الحوار والمناظرة للدكتور على حريشة طبعة الوفاء ٠
٣ – أسرار التكرار فى القرآن للكرمانى تحقيق ودراسة : عبدالقادر أحمد عطا دار الاعتصام ٠
٤ – بدائع الفوائد لابن القيم دار الفكر العربى للطباعة والنشر القاهرة٠
٥ – البرهان فى علوم القرآن للزركشى تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم دار المعرفة ــ بيروت ــ لبنان ٠
٦ – البيان فى روائع القرآن د/ تمام حسان طبعة الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٢م٠
٧ – تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ــ دار التراث ٠
٨ – تنزيه القرآن عن المطاعن لعماد الدين أبى الحسن عبدالجبار بن أحمد ــ دار النهضة الحديثة بيروت ــ لبنان ٠
٩ – تفسير أبى السعود لأبى السعود محمد بن محمد الحماوى مطبعة عبدالرحمن محمد ٠
١٠ – التحرير والتنوير للإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور دار سجنون للنشر والتوزيع ــ تونس ٠
١١ – التفسير الكبير لفخر الدين الرازى دار الفكر ٠
١٢ – خصائص التراكيب د/ محمد أبو موسى د/ محمد أبوموسى الناشر: وهبة ٠

١٣ - درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافى منشورات دار الآفاق الجديدة [بيروت] .
١٤ - دلائل الإعجاز عبدالقاهر الجرجانى ـ تحقيق: الشيخ محمود شاكر ط: الهيئة العامة للكتاب .
١٥ - روح المعانى لشهاب الدين السيد محمود الألوسى البغدادى دار الفكر .
١٦ - غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى تحقيق: إبراهيم عطوة عوض مطبعة: مصطفى البابى الحلبى .
١٧ - الفاصلة فى القرآن لمحمد الحسناوى دار عمار .
١٨ - كتاب الطراز للعلوى ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان
١٩ - كشف المعانى لبدر الدين بن جماعة ـ تحقيق: الدكتور عبدالجواد خلف ـ سلسة منشورات جامعة الدراسات الإسلامية ـ كراتشى ـ باكستان .
٢٠ - الكشاف للزمخشرى ـ طبعة طهران .
٢١ - متشابه القرآن ، لعبدالجبار بن أحمد الهمذانى تحقيق د/ عدنان محمد زرزور .
٢٢ - متشابه القرآن العظيم لأبى داود المنادى تحقيق: فضيلة الشيخ عبدالله بن محمد الغنيمان مكتبة لينة دمنهور .
٢٣ - المثل السائر لابن الأثير تحقيق: ١ - د/ أحمد الحوفى ، ٢ - د/بدوى طبانة ، طبعة : نهضة مصر .
٢٤ - مسائل الرازى وأحونيها لمحمد بن أبى بكر بن عبدالقادر الرازى ط/ مصطفى البابى الحلبى .
٢٥ - معجزات القرآن لدكتور شوقى ضيف دار المعارف .
٢٦ - معجم آيات القرآن الكريم محمد منير الدمشقى ـ مكتبة التراث الإسلامى القاهرة .

٢٧ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم د/ محمد فؤاد عبدالباقى دار البيان للتراث .
٢٨ - ملاك التأويل لابن الزبير الثقفى تحقيق: سعيد الفلاح دار المغرب الإسلامى.
٢٩ - من أسرار التغيير القرآنى دراسة تحليلية لسورة الأحزاب د. محمد محمد أبو موسى الطبعة الثانية ١٩٩٦م مكتبة وهبة
٣٠ - من جمال النظم القرآنى فى سورة إبراهيم دراسة تحليلية بلاغية مقارنة الطبعة الأولى ١٩٨٩م ، د. صلاح الدين محمد أحمد دار الطباعة المحمدية.
٣١ - النبأ العظيم د/ محمد عبدالله روراز دار القلم : كويت .